القسم الثالث

.. تعليقا على كلمة الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق فى صفحة " ثقافة " أهرام الجمعة ١٩٩٩/١٢/١٧ عن ("الفلسفة فى مصر فى مائة عام) :

فجر التفلسف فى مصر القديمة

على الرغم من قصر كلمة الدكتور زقزوق ، إلا أنها أشارت إلى عدة أفكار تغرى بالمناقشة والحوار ، ولما كان من العسير مناقشة كل ما حوته هذه الكلمة من أفكار ، فسوف أقتصر على فكرة واحدة تتصل بالدور المصرى فى نشأة الفكر الفلسفى ، ذلك لأن هذه الفكرة لم تنل حظها الواجب من البحث والمناقشة ، أو إذا شئنا مزيدا من الدقة ، فإن ما أثير وكتب حولها لا يتناسب أبدا مع ما تمثله الحضارة المصرية القديمة من ثقل فى التاريخ الحضارى ، وفى رأينا فإن ركنا مهما من أركان القيمة التاريخية للحضارة ، موقفها من العطاء العقلى والنظر الفلسفى .

إن المشكلة الحقيقية تكمن فى أن التأريخ للفكر الفلسفى قد بدأ على يد غربيين ، ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا اتجه تفكيرهم أول ما اتجه إلى الإغريق يمثلون باعتبارهم البداية الحقيقية للتفلسف ، ذلك أن الإغريق يمثلون بداية الحضارة الغربية التى ينتمى إليها هؤلاء المؤرخون . ولأننا تعلمنا فى العصر الحديث على أيد غربية فقد كان طبيعيا أن ننهج نهج مؤرخى الفلسفة الغربيين ونساير القول بالأصل اليونانى للتفلسف . ولقد كان هذا مفهوما فى بداية حركة النهضة الفكرية العربية ، وعندما كانت معظم صفحات الحضارات الشرقية لم تزل فى عالم الغيب . أما وقد قطعنا شوطا طويلا فى حركة اليقظة الفكرية ، وانكشفت صفحات لا حصر لها ، وخاصة بالنسبة للحضارة المصرية القديمة ، فقد آن الأوان لمراجعة هذه المقولات التى توارثناها ورددها بعضنا سنوات طويلة .

فى عام ١٩٥٥ ، عندما درس لنا د.توفيق الطويل نشأة الفلسفة ، كان مما عرض له ، وجهة نظر غربية ترد هذه النشأة إلى الغرب استنادا إلى أن ما كان يميز التفكير الفلسفى اليونانى : التماس المعرفة لذاتها ، بمعنى أن يتجه العقل إلى كشف الحقيقة بباعث من اللذة العقلية ، ومن غير أن تدفعه إلى ذلك أغراض عملية أو غايات دينية ، وهذا النوع من المعرفة النزيهة قد نشأ لأول مرة فى ظل اليونان .

ولعل من أبرز من رددوا هذا الاتجاه الفيلسوف الإنجليزى الشهير برتراند رسل فى موسوعته الضخمة عن تاريخ الفلسفة الغربية ، حيث أكد فى الجزء الأول أن الإغريق هم " الذين اخترعوا الرياضة والعلم والفلسفة اختراعا ... وهم الذين أرسلوا الفكر حرا فى طبيعة العالم ونهاية الحياة ، دون أن يغلوا أنفسهم بقيود العقائد الموروثة " . لكن هذا لا يعنى أننا لم نشهد مؤرخين غربيين آخرين قدموا وجهة نظر تتسم بالإنصاف والموضوعية ، ويظهر لنا هذا فيما نقله أستاذنا الراحل " الطويل " عن " ماسون أورسيل " Masson-Oursel من أن العلة فى التفسير الذى قدمه رسل وغيره ، تكمن فى تضييق معنى الفلسفة ، ولو وُسع هذا المعنى بحيث يشمل الحياة العقلية والروحية ، فسوف نجد ثمرات كثيرة وغنية فى حضارات شرقية أخرى ، ولا يقدح فى هذا الاتهام الفكر الشرقى باختلاط الحياة العقلية بالدينية فيه، ذلك أن التفكير الفلسفى لم يستطع فى معظم العصور أن ينفصل تماما عن التفكير الدينى .

بل إن هناك من أكد أن الأمة الإغريقية لم تظهر على مسرح الحياة تحمل طابعها العقلى الفلسفى الفذ بين سائر الأمم القديمة دون أن تقارف ما كان غيرها يقارفه من أوهام وضلالات وخرافات وأساطير ومحاولات صبيانية لفهم أسرار الكون وألغازه التى كانت تبدو لهم تحت ضباب كثيف لا تنفذ العيون إلى ما وراءه إلا ظنونا ورجما بالغيب .. فلقد كان الإغريق يؤلهون الظواهر والقوى الطبيعية ، ويؤلهون مشاهير أبطالهم وينسبون إليهم من الخوارق ما لا يصدقه عقل . وكانوا فوق ذلك يصفون آلهتهم بأوصاف أفجر الناس ميولا وأشدهم إفراطا فى الملذات والشهوات ، وأوغلهم فى المظالم والعصبيات والأحقاد التى تعيب عامة الناس .

وفضلا عن ذلك فقد نقل عبد القادر حمزة فى كتابه (على هامش التاريخ المصرى القديم) عن هيرودوت ترجيحه أن تكون جميع الشخصيات المقدسة فى اليونان مأخوذة من مصر . كذلك نقل عن " بلوتارك " أن عددا من الفلاسفة الإغريق وعلماؤهم جاءوا إلى مصر وأخذوا الكثير عن قدماء المصريين ثم هذبوه على طريقتهم ووضعوه فى قالب جديد علمى عقلى ، وهؤلاء يرتبون ترتيبا تاريخيا ما بين القرن السابع ونهاية القرن الخامس قبل الميلاد تقريبا .

أما الأثرى المصرى الكبير الراحل " سليم حسن " فقد أكد فى الجزء الرابع عشر من موسوعته الضخمة (مصر القديمة) أن فلاسفة الإغريق فى هذه الفترة المشار إليها قد كونوا مدارس فلسفية وهى مدرسة " أيونى " ومدرسة " إيطاليا " ومدرسة " إلى " Elee ، ومدرسة " أبديرى " Abdiri ، ويضاف إلى هذه المدارس أولئك المفكرون الذين يمكن أن نذكر منهم " أناجزاجوراس " وكذلك " أمباذوكليس " الذى سعى أن يصب فى نظام واحد أصل المذاهب " الأيونية " و " الهيراكلية " و " الإيلية " و" البيثاغورية " ، وفلاسفة هذه المدارس وغيرهم ممن جاء قبل سقراط قد زاروا مصر وتأثروا بتعاليم مدارسها وكهانتها ونقلوا كل ما تعلموه إلى بلاد الإغريق ، فتأثرت بذلك العلوم الإغريقية أيما تأثر ، وانتهى سليم حسن إلى تقريره بأن المؤكد أن فلسفة اليونان وعلومهم فى مرحل تطورهم الأولى ترجع إلى مصدر مصرى واضح . ومعروف كذلك أن أفلاطون بدوره زار مصر وأقام فيها فترة من الزمن .

وفى كتابه المثير (فلاسفة الشرق) - الذى ترجمه " عبد الحميد سليم - وبعد أن يشير مؤلفه " توملين " إلى ما سجلته كشوف الحضارة المصرية القديمة من سلسلة لا تكاد تتوقف من الكشوف المذهلة عن إنجازاتها الحضارية إلى الدرجة التى يندر أن نجد عندها متحفا غربيا كبيرا يخلو من آياتها ، يقول بشىء من الأسى أن الشعوب بوجه عام لم تكن علم تام بما حققه " هؤلاء الأناسى الماهرون " - أى المصريين - وتفسير ذلك فى رأيه يكمن فى أن " أصول الفكر واليقظة الأولى للضمير الأخلاقى والاجتماعى أقل إثارة من التنقيب عن مقبرة أو فتح تابوت من التوابيت الحجرية " . ولعل هذا ما دفع مؤرخا فى علم المصريات شهيرا هو " برستيد " أن يؤلف كتابا خصصه للكشف عن الدور الخلاق للحضارة المصرية بالنسبة للقيم الخلقية ، ويتضح هذا من دلالة اسم الكتاب وهو (فجر الضمير) !

ومن هنا فلنا أن نفهم ما أكده " توملين " من أن المصريين هم أول أناس ، بل أول شعب يناقش تلك المشاكل الأخلاقية : مشاكل الخير والشر مطبقة على الحياة ذاتها ، ومشاكل الصواب والخطأ مطبقة على السلوك البشرى ، تلك المشاكل التى هى بعينها مثار اهتمامنا اليوم . وأكثر من هذا ينفى مؤرخنا هذا أن كانت هناك أية محاولة مماثلة نحو التفلسف المنطقى المتماسك قبل تلك المحاولة التى قام بها الحكماء المصريون !! وتحت تأثير غنى المادة التى أتاحتها الحفريات فى مصر ، وعراقتها فى القدم ، وصل بعض المفكرين ، وفى مقدمتهم جميعا فلندرز بترى وأيليوت سميث ، وبريستد نفسه إلى حد ما ، وصلوا إلى ما

أطلق عليه اسم النظرية الانتشارية للثقافة والتى بناء عليها أن كل حضارة فى العالم نشأت مما كان هناك من تطورات فى وادى النيل .

وفى مجموعة دراسات صدرت بعنوان (ما قبل الفلسفة) ترجمها " جبرا إبراهيم جبرا " كتب " جون ١٠.ولسن " عن بعض القضايا الفلسفية التى تصدى لها الفكر المصرى القديم وفى مقدمتها بطبيعة الحال القضية الخاصة بأصل الكون ، صحيح أن ما قدمه المصريون فى هذا الشأن كان ضمن عدد من الأساطير ، وليس نتيجة تأمل وتفكير نظرى ، إلا أننا يجب أن نحكم على قيمة ما يقدم دائما فى إطاره الزمنى ، فالعقل البشرى قبل الميلاد بآلاف من السنين لابد وأن تختلط أفكاره فى هذه المسألة باتجاهات أسطورية بحكم " طفولية " التفكير فى هذه العهود البعيدة فى الزمن . ومع ذلك فإذا عرفنا قصة تصف ظهور الحياة من المياه ، وقارناها بما قاله طاليس بعد ذلك ، ثم بما جاء فى القرآن الكريم " وجعلنا من الماء كل شىء حى " كان لابد وأن نشعر بقدر كبير من التقدير والاحترام ، وإن كانت هذه الفكرة قد تضمنتها أيضا بعض الأساطير البابلية . وهناك نص يعلق عرضا على الخليقة ويقول إن الإنسان قد صنع فى صورة الله ، وهذا النص يؤكد على طيبة الإله الخالق فى العناية بخليقته البشرية . بل ن النص المشار إليه يؤكد كذلك على أن غاية الخليقة هى مصلحة الإنسان نفسه .

وإذا كانت هناك نصوص أمكن للباحثين أن يستدلوا منها على عدد من القسمات التى اتسمت بها النظرة الذهنية التى كان الإنسان المصرى القديم ينظرها إلى العالم المحيط به ، فقد كان على هؤلاء الباحثين كذلك أن يدرسوا سؤالين هامين : هل كان المصرى القديم يرى فرقا أساسيا من حيث الجوهر بين الإنسان ، والمجتمع ، والنبات ، والحيوان ، والكون المحسوس ؟ وهل كان يعتقد أن الكون يحسن إليه ، أو يعاديه ، أو لا يأبه له ؟ وشكلت محاولات البحث عن الإجابة دراسات على جانب كبير من الأهمية تكشف عن صفحات ناصعة من التفكير الفلسفى فى تلك العهود المبكرة من التاريخ .

واستطاع عدد من الباحثين كذلك أن يضعوا أيديهم على المشكلة الحقيقية فى الفكر التأملى : لماذا وُجدتُ فى هذه الدنيا ؟ وكم هى صادقة تلك الكلمات التى سطرها قلم باحثنا " ولسن " عندما أشار إلى أنه يتعذر علينا هنا أن نجد تعميما واحدا كافيا لألفى سنةً من التاريخ ، وكل تعميم قد نأتى به لن يجد قبولا كثيرا من العلماء الآخرين .

وقد استطاع باحث متميز هو د٠عبد الحميد درويش ، أن يقدم لنا كثيرا من ثمرات الفلسفة المصرية القديمة فى دراسته المعنونة ب (الفلسفة فى مصر القديمة ، من أمحوتب ، إلى أخناتون) وهى دراسة فى أصل التوحيد ، وقدم لها الدكتور عاطف العراقى ، وكان مما جاء فى هذه الدراسة توحيد بتاح حوتب بين العلم والحكمة ، وأن من وسائل تحصيل الحكمة : كمال العقل وتمامه ، وكمال العقل هذا يتبين لنا من قول بتاح حوتب : ابتع لبك (عقلك) ما دمت حيا ٠٠٠ فإن ثروة المرء العظيمة هى عقله ٠٠" ٠

وإننا فى النهاية لنعجب من اتخاذ التفكير النظرى المجرد معيارا أساسيا للتفلسف الحقيقى ، وخاصة إذا كان غاية فى حد ذاته ، بينما كان التفكير المصرى القديم ملتبسا بالعمل ، ويستخدم باعتباره " وسيلة " لهذا العمل ، ووجه العجب هنا أن الفلسفة المعاصرة قد تخلت عن اعتبار التفكير غاية فى حد ذاته ، ومالت إلى أن يكون " وسيلة " تعين الإنسان على حسن التعامل مع مفردات المنظومة الحيوية ، من إنسان ونبات وحيوان ، والمنظومة الطبيعية ٠ وعلى الرغم من التباين الشديد بين الفلسفة الماركسية وبين الفلسفة البراجماتية ، فقد كانت وظيفة الفلسفة فى الأولى هى " تغيير العالم " وليس " تفسيره " والتغيير لا يتم إلا بأن يُتخذ التفكير " وسيلة " ، وكانت قيمة الفكرة فى البراجماتية تتحدد بمقدار إعانتها الإنسان على أن يواجه موقفا مشكلا ، أفليس هذا كافيا لأن يرد الاعتبار إلى التفكير الفلسفى المصرى القديم باعتباره تفكيرا فلسفيا من الطراز الأول ، ويقلل من تلك الهالة التى أحاطت التفكير الفلسفى الإغريقى زمنا طويلا ؟

• الأهرام ، ١٩٩٩/١٢/٢٤

تحية إلى راحل عظيم : د٠سليمان حزين

عندما هاتفنى د٠ عبد الرازق عبد الفتاح مساء الخميس برحيل أستاذنا الكبير ، شعرت بهزة عنيفة ، على الرغم من توقعنا هذا منذ فترة ، فلقد رأيناه فى الجلسة الأخيرة للمجلس القومى للتعليم قبل رمضان ، حريصا على الحضور ، رغم اضطراره إلى أن يستند على من يساعده ، من اليمين ومن اليسار ، على السير والصعود إلى المنصة ٠

كنت ، مثل آلاف غيرى أسمع عنه وأقرأ له دون أن أراه حتى أتاح الله لى أن أكون قريبا منه منذ أن عام ١٩٨٤ ، عندما شرفت بعضوية المجلس القومى للتعليم ، فقد كان هو المحرك الأساسى للمجلس ، وقلمه لا يخطىء أحد التعرف عليه فى صياغة معظم التقارير التى صدرت عن هذا المجلس طوال سنوات عديدة ٠ وفضلا عن ذلك فقد شرفت بتلبية دعوته لأكون عضوا فيما كان يسمى بلجنة المقررين والأمناء بنفس المجلس ، وأيضا فى شعبة الثقافة بالمجلس القومى للثقافة ، وزاد هذا القرب عندما أصبح مقررا للجنة التربية وعلم النفس فى مجمع اللغة العربية ، وكنت فى بادىء الأمر أعجب بعض الشىء أن يكون مسئولا عن مثل هذه اللجنة وهو " عالم فى الجغرافيا " كبير، لكن الحق الذى يقال أنه لم يكن يتدخل فى المضمون العلمى لما نقترحه من مصطلحات أنا وأخى الكبير د٠سيد عثمان ، لكنه كان بارعا غاية ما تكون البراعة فى دقة وسلامة الصياغة اللغوية ، حتى لقد كانت اجتماعات هذه اللجنة مدرسة تعلمت فيها الكثير مما لم أكن أعلم ٠

وعالمنا الراحل ولد فى الرابع والعشرين من شهر مايو عام ١٩٠٩- وفقا لما صرح به فى حوار صحفى أجراه معه " حمدى المرصفاوى " - فى إحدى قرى محافظة البحيرة ، وقضى سنوات من طفولته على أرض وادى حلفا بالسودان حيث انتدب والده للعمل هناك ، لكنه كان كثير التعرض للأمراض ، أبرزها " البلهارسيا " ، فقد كان مثل ألوف من أطفال الريف المصرى يستحم فى الترعة ، فآثر والده أن يبقيه فى مصر مع جده " سليمان " وجدته الحاجة " مبروكة " ، فأرسله جده إلى كتاب القرية كجرى العادة ، وكان فقيهه الشيخ عبد ربه ضريرا ، لكنه كان على درجة عالية من المهارة والوقار ، حتى أن أستاذنا ظل فترة لا يكاد يصدق ذلك من كثرة ما لمسه منه من دقة ومهارة فى التعليم وإدارة الكتاب ، وكان يساعده عريف اسمه " الشيخ الحدينى " ، حيث تعلم منه الحساب ومبادىء الكتابة والخط ، ولم يزد فى حفظه للقرآن الكريم عن ثلاثة أجزاء ٠

ثم عاد ليلحق بأبيه بوادى حلفا ملتحقا بمدرستها الابتدائية ، ولما أتمها نصح بعض الأقارب بأن يتجه صاحبنا إلى التعليم الأزهرى ليكون " عالما " مثل الجمهرة الكبرى من أقاربه وخاصة أخواله ، لكن رأيا آخر كانت له الغلبة ، بأن يُعد فى التعليم الحديث ليكَون قاضييا أو محاميا ، أو ما قارب هذا أملا فى أن يكون فى يوم من الأيام من المشاركين فى الحكم ، وهى نفس الفكرة التى جعلت رائد التعليم المصرى الحديث " على مبارك " يهرب من التعليم الدينى ليلتحق بالتعليم المدنى الحديث ٠

واختار له والده الالتحاق بمدرسة الخديوية بالقاهرة ، وكان عدد المدارس الثانوية محدودا للغاية ، فكان بالقاهرة مدرستان أو ثلاث، وبالاسكندرية مدرسة واحدة ، ثم مدرسة بطنطا لوجه بحرى كله ، وأخرى بأسيوط للصعيد كله ، وبعد فترة قصيرة آثر والده أن ينقله من الخديوية إلى مدرسة طنطا (القسم الداخلى) حيث كانت المصروفات واحدا وأربعين جنيها ، وهو مبلغ ضخم بمقاييس هذا الزمن ، فدفع القسط الأول بالكاد ، ثم استطاع أن يتمتع بالمجانية نظرا لتفوقه ٠ وكانت الحياة بالمدرسة فى ذلك الوقت أفضل بكثير من خارجها ، فالمدرسون متفرغون للتدريس ، ليس هناك شىء اسمه دروس خصوصية ، والدراسة تبدأ قبل الثامنة صباحا وتنتهى قرب الرابعة مساء ، وهناك الملاعب ، والمكتبة العامرة بالكتب وبالرواد ، والمسجد ، والنادى مساء للمقيمين بالداخلية ، وكان المدرسون يشاركون الطلاب فى ممارسة الأنشطة وخاصة الألعاب ، وكان من هؤلاء " السيد يوسف " الذى كان وزيرا للتربية والتعليم فى الستينات ، حيث زامله أستاذنا عندما اختير وزيرا للثقافة عام ١٩٦٥ ، إذ كان يغتبط بأن يكون هو " التلميذ "- سابقا - زميلا فى الوزارة مع " معلمه " السابق فى الرياضيات ٠

وعندما حصل أستاذنا على الشهادة الثانوية عام ١٩٢٥ ، القسم الأدبى ، كان مجموع الناجحين أقل من تسعمائة ، لم يكن بينهم طالبة واحدة ، حيث لم يبدأ التعليم الثانوى للبنات إلا عام ١٩٢٠ ، وكانت مدة الدراسة فيه تزيد عاما عن مدة البنين التى كانت خمس سنوات ٠ وكان الأهل يريدون منه أن يلتحق بكلية الحقوق ، الكلية

التى كانت تخرج الوزراء والحكام فى هذه الفترة ، لكنه آثر أن يلتحق بكلية الآداب ، وكان هذا هو العام الأول لبدء الدراسة فى الجامعة بعد أن تخلت عن صفتها " الأهلية " وأصبحت " حكومية " ، ولم يجد صاحبنا إلا زميلا واحدا شاركه فى الالتحاق ، هو د٠ نجيب بلدى ، الذى أصبح أستاذ الفلسفة فيما بعد ، وكان أجنبى الأصل ، وكان هذا الاسم جديدا ، كما روى لنا أستاذنا ، ولا أذكر ماذا كان اسمه الأصلى ٠

كانت مصروفات الطالب عشرين جنيها ، لكن عز على مدير الجامعة ، أستاذ الجيل ، أحمد لطفى السيد ، أن يجد هذا الصدود فى الالتحاق بالآداب التى كان ينظر إليها باعتبارها كلية التعليم الأساسى للجامعة ، فإذا به يصدر قرارا بأن يكون الالتحاق مجانيا ، فيرتفع العدد إلى عشرين طالبا ، وكان هذا حقا لمدير الجامعة ، إذ على الرغم من تبعية الجامعة للحكومة إلا أنها كانت تتمتع باستقلال ذاتى فى إدارة شئونها العلمية والمالية والإدارية ٠ ومن غريب النظام فى ذلك الوقت أنه كان يتيح للطالب أن يواصل الدراسة فى قسمين فى آن واحد ، فدرس صاحبنا الاجتماع والجغرافيا ، وألح عليه د٠طه حسين أن يلتحق بقسم اللغة العربية ، لكنه اعتذر له ، ومع ذلك فقد كان حريصا على حضور محاضرات أستاذه الكبير ٠

وفى أوائل يوليو عام ١٩٣٠، أوفدت كلية الآداب أول بعثة من خريجيها إلى الجامعات الأوربية ، وبالذات ، انجلترا وفرنسا ، وكان حزين ضمن ثلاثة أوفدوا إلى انجلترا ، وتفرغ هناك ليدرس الجغرافيا التاريخية للعالمين العربى والإسلامى ، وانتهى من دراسة الماجستير عام ١٩٣٢ ، ثم الدكتوراه عام ١٩٣٥، وعندما عاد عمل بطبيعة الحال عضو هيئة تدريس بكلية الآداب ، كما تقلب فى بعض المواقع القيادية فى وزارة التربية ، منذ أن أصبح طه حسين وزيرا عام ١٩٥٠ ٠

وما من مرة أذكر فيها أمامه جامعة أسيوط ، عندما أُدعى إلى مناقشة رسالة أو ندوة أو مؤتمر ، إلا وأشعر وكأننى ذكرته بقصة حب غابة فى العمق ، فيفيض فى ذكر بعض ذكرياته عن إنشائها ، عندما حادثه كمال الدين حسين عام ١٩٥٥، الذى كان وزيرا للتربية بأن يترك عمله كوكيل مساعد بوزارة التربية ليكون مديرا لجامعة

جديدة مطلوب إنشاؤها بأسيوط . والحق الذى لابد من تسجيله هنا أن هذه الجامعة ، تكاد أن تكون هى الجامعة المصرية الوحيدة التى أنشئت وفقا لأسس وقواعد راسخة من حيث إعداد أعضاء هيئة التدريس ، من خلال بعثات خارجية أولا ، ومن حيث التخطيط لمنشآتها ، والذى يزورها الآن يستطيع أن يلمس روعة هذا التخطيط ، فكل كلياتها فى " حرم " واحد ، فضلا عن الخدمات الأخرى المرتبطة بعمليتى التعليم والبحث العلمى ، والخدمات الاجتماعية والصحية والرياضية والسكنية .

ومما ينبغى ذكره فى هذا المجال ، أن ميثاق العمل الوطنى عندما أعلن عام ١٩٦٢ ، لاحظ البعض التوجه اليسارى للفكر الوارد به ، على الرغم من تصدر كمال الدين حسين للمناسبة ، وهو المعروف بتوجهه " اليمينى " ، ومن هنا كان هناك سعى للقيام بعملية التفاف على الميثاق ، فكُونت لجنة من اثنى عشر مفكرا كان على رأسهم أستاذنا د. حزين ، حيث وضعت هذه اللجنة ما يعرف باسم " تقرير لجنة الميثاق " وكأنه مذكرة تفسيرية ، لكن من وجهة نظر أخرى مغايرة للتوجه اليسارى ، ولأن هذا التقرير لم يكن منسجما مع التيار العام الذى كان سائدا ، فقد دخل دائرة التعتيم بسرعة ، ولم يعد أحد يذكره .

وكان الغالب على فكر أستاذنا ، فيما يتصل بالقضايا العامة هو النهج التوفيقى الذى يبعد عن احتمالات الصدام ، حتى أن المناقشات فى بعض شعب المجلس القومى للتعليم عندما كانت تحتدم ، وتصدر تعليقات وأفكار تتسم بالحدة والعنف ، كانت له عبارة شهيرة يقول فيها أن الأمر يحتاج منه إلى القيام بعملية تشبه ما يقوم به الصيادلة من تقديم الدواء " المر " من خلال مذاق حلو حتى يمكن للمريض تقبله!

ولا يمكن فى هذه الكلمة الموجزة أن أوفى الرجل حقه ، فهذه الحياة الطويلة العريضة كانت سجلا ضخما يحتاج مجرد تصفحه إلى صفحات مطولة يضيق بها المقام ، ورحم الله الفقيد ، فقد أعطى لمصر والعروبة الكثير .

---

* الأهرام ، ١٩٩٩/١٢/٢٦

شباب بلا سياسة !!

كان حظى سعيدا حقا عندما استمتعت بحديث مطول فى الأسبوع الماضى مع واحد من أقدر من عرفنا قيادة لمسيرة أعرق مجلة ثقافية فى الوطن العربى ، أما هذا الشخص فهو الأستاذ مصطفى نبيل ، وأما المجلة فهى " الهلال " ، فقد بادرنى سائلا : هل حقا أن هناك ما يحرم على طلاب الجامعة العمل السياسى من خلال الأحزاب ؟ لقد فاجأنى السؤال ، وكأن ردى أنه ، فى حدود علمى ، فلا أظن أن هناك ما يمنع الطلاب من هذا خارج الجامعة ، لكن ما أعلمه علم اليقين أنه محرم داخل الجامعة ، وإن لم يكن هناك نص قانونى بذلك ، ثم اتصلت المناقشة إلى جوانب وزوايا أخرى من نفس القضية .

وكثيرون منا ما زالوا يذكرون تلك المقولة الشهيرة التى وردت على لسان الرئيس الراحل أنور السادات والتى قال فيها أنه لا سياسة فى التعليم ، وعلى الرغم من مرور ما يزيد على ثمانية عشر عاما على رحيله ، فما زالت هذه المقولة تشكل توجها ملحوظا بالنسبة لسياستنا فى التعامل مع شباب الجامعة ، ففى اللوائح الطلابية السابقة ، كانت هناك لجنة يقع النشاط السياسى ضمن اختصاصاتها ، ولم يكن المقصود بالنشاط السياسى هنا أن تكون للأحزاب فروع داخل الجامعات ، أو أن يمارس بعض الطلاب عملا سياسيا مما يقع فى اهتمامات هذا الحزب أو ذاك ، وإنما كان المقصود من ذلك هو التحاور والنقاش وعقد الندوات والمحاضرات فى القضايا والمشكلات السياسة ، المحلية والعالمية .

ثم جاءت لائحة ٧٩ وألغت هذا ، بل إن واقع الحال يشير بما لا يدع مجالا للشك أن النشاط السياسى بالمعنى الذى أسلفت ازداد تحريما وتجريما ، ووجدت هذه السياسة مبررا قويا لها فيما شهدته البلاد عبر سنوات ماضية من مظاهر غلو مرذول ، وتطرف مرفوض ، وعنف محرم . صحيح أنه لا يوجد حاليا نص أو نصوص قانونية تمنع النشاط السياسى بين شباب الجامعة ، لكن التقليد الحادث ، والعرف السارى أنه من غير المرحب به دعوة ضيوف من خارج الجامعة لإدارة حوار حول قضية من القضايا السياسية ، أو ضيف واحد لإلقاء محاضرة .

لكننا فوجئنا بحديث للدكتور على الدين هلال فى " الأهالى " يوم الأربعاء ١٩٩٩/١١/١٠ ينفى أن يكون النشاط السياسى ممحرما على شباب الجامعة ، وكان نص السؤال الذى وجهه المحرر له يقول : " كيف نحقق مشاركة الشباب فى الحياة السياسية وشباب الجامعات يعانون من الحرمان من ممارسة العمل السياسى داخل الجامعات وفرض قيود على النشاط الطلابى ؟ " فماذا كان رد السيد الوزير ؟ قال : " اللائحة الطلابية لا تمنع ممارسة العمل السياسى داخل الجامعات ولا تمنع دعوة متحدثين لعقد لقاءات مع طلاب الجامعات بشرط موافقة عميد الكلية ، وفى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية عندما كنت عميدا للكلية وبعدها دعونا متحدثين من كل الاتجاهات تحدثوا فى لقاءات مع الطلاب بوطنية وعبروا عن وجهة نظرهم ، والمشكلة تكمن فى بعض المسئولين الذين يعرقلون بعض الأمور " .

إن المشكلة فى التعليق على هذه الإجابة أننا نحمل من التقدير والود تجاه وزير شبابنا ما يجعلنا نتردد فى التعبير عن رأينا المخالف ، حيث ترسخت لدينا " عقدة " ، كما يقول زملاؤنا أساتذة الصحة النفسية ، من توجيه أى نقد لوزير قائم بالعمل حيث لدينا من مخزون الخبرة السابقة ما هو محزن حقا ، مؤسف فعلا ، ونأمل ألا يكون د.على من هذه الفئة ، خاصة وأن تمرسه فى العلوم السياسية مفروض أن يجعله يوقن أشد ما يكون اليقين أن الحقيقة الكاملة ليست ملكا لأحد مهما كان موقعه ، وإذا كان على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه قد قال بأن القرآن الكريم " حمال أوجه " ، أى يحتمل تعدد الآراء فى الفهم والتأويل ، فما بالنا بالقضايا السياسية التى لها ألف وجه ووجه ؟

إن أخشى ما أخشاه حقا هو أن يتورط وزيرنا الكريم فى إجابات وتصريحات قد لا تكون مُصورة تصويرا دقيقا لواقع موضوع الحديث ، وربما يكون هذا نتيجة لأن وزيرنا استخدم للبرهنة على رأيه قياسا لا تتوافر فيه مقومات القياس المنطقى الذى نستند إليه فى تأكيد الحكم على موضوع كان مجهولا أو مشكوكا فيه ، بإظهار التشابه بين هذا الموضوع وبين موضوع آخر معلوم الحكم مؤكده ، فكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ظاهرة فريدة فى جامعاتنا المصرية ، ولا تتبدى خصوصيتها من كونها هى الكلية الوحيدة فى مصر ، ولكن لأن عملها الأساسى هو " السياسة " بحكم القانون ، أما كافة الكليات الأخرى فوضعها مختلف كثيرا ، ولا أعنى بذلك أن تخصصاتها لا علاقة لها بالسياسة ، إذ أن رأيى الشخصى

أنه ما من مجال من مجالات العلوم المختلفة إلا وله صلة مباشرة أو غير مباشرة بالسياسة.

وقد عرفت كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بثقل وزنها على المستويين الجامعى والسياسى مما جعلها " مستثناة " ، بل مكسبا لكل من تدعوه الكلية كى يشترك فى ندوة أو يلقى محاضرة ، وفيها كما نعلم مركز للبحوث والدراسات السياسية كان وزيرنا مديره قبل أن يُعمد ، وصارت مديرته الآن الأستاذة الجليلة د.نازلى معوض ، وهو دائم الندوات والمؤتمرات والمحاضرات ، لأن هذه هى - مرة أخرى - وظيفة الكلية ومهمتها بما فيها المركز، لكن السؤال : هل هذا متاح فعلا فى كليات الجامعة كافة ؟ كلا بكل تأكيد !

إن المسألة ليست مجرد تصريح من السيد العميد ، أى عميد ، ذلك أن السلطة الحقيقية فى هذا الشأن ليست بيده .. إنه الصورة الخارجية القانونية التى تواجهنا ، لكن السلطة الحقيقية هناك بيد تلك القوة الخفية المشهورة : الأمن ! فكثيرا ما يكون الرأى الأمنى، أن فلانا أو علانا يمكن أن يتسبب فى خلل أو تعكير لصفو الأمن بالجامعة أو الكلية ، وأصبح هذا معروفا ومشهورا ، حتى لقد انصرف الكل على وجه التقريب عن التفكير فى دعوة أحد!

أقول هذا وأنا أعلم أن هناك من يمكن دعوتهم ليتحدثوا إلى الطلاب فى السياسة ، لكن هؤلاء يكونون دائما ممثلين للحكومة أو للدولة .. لقد عقد الحزب الوطنى مؤتمره الأخير فى جامعة القاهرة ، فهل يستطيع أى حزب آخر أن يفعل ذلك ؟ إن القضية ليست إذن هى إباحة دعوة متحدثين للتحدث إلى شباب الجامعة فى السياسة ، ولكن هى دعوة من ؟ والتحدث فى أى قضية ؟ ومن أى منظور أو توجه ؟ هل يمكن لأحد ، حتى من داخل أى كلية أن ينظم ندوة داخلية للحديث عن حق الفلسطنيين فى مقاومة الاحتلال الإسرائيلى مثلا أو نقد ما تم من اتفاقيات ؟ قد لا يكون هذا غير ممثل لسياستنا العامة ، ولكن أليس من حق صاحب الرأى أن تتاح له الفرصة أن يعبر عن رأيه ما دام بالكلمة والجدال بالتى هى أحسن ؟ ألا يتم هذا نفسه داخل إسرائيل ، حيث ترفض بعض القوى ما عقد من اتفاقيات ؟

إن هناك من يقولون أن طلاب الجامعة يجب أن يتفرغوا لتحصيل علومهم ، لكن لا ننسى أن هؤلاء سوف يتخرجون ربما بعد عدة أشهر للحياة العامة ، فهل نتصور أن نحرم على أبنائنا ممارسات بعينها سنوات عمرهم الدراسى كلها ، حتى إذا تجاوزوا سن الرشد

وتخرجوا من الجامعة تصورنا أنه يمكن أن يشاركوا ويمارسوا بفاعلية ونضج ؟ كلا ، سوف يستمرون فيما ربيناهم عليه ، عازفين عن المشاركة ، بعيدا عن الاهتمام بقضايا الوطن والأمة والعالم ، شعار كل منهم الذى اكتسبه من غياب التربية السياسية الصادقة ، " وأنا مالى " ، و " خلينا ناكل عيش " و " ياللا نفسى " .. وهكذا ؟!

إن القاعدة الأساسية أن أحدا لا يمكن أن يتعلم شيئا لا يمارسه ، وإذا أردنا شبابا يشارك فى قضايا وطنه القومية ، فليتدرب على ذلك قبل أن يتخرج من الجامعة ، ولنضع القواعد المنظمة التى تضع "الأمن " فى الاعتبار ، لكنها لابد أن تكون غير كابحة للممارسة الديموقراطية .

---

* الأخبار ، ١٩٩٩/١١/٢٤

٠٠حتى لا يجنى التعليم على العربية

من بين كثير مما تميز به الإنسان على سائر الكائنات الحية ، تجىء اللغة فى موقع متقدم ٠ وإذا كان البعض يذهب إلى أن هذا تعميم مبالغ فيه مستندا فى ذلك إلى أن الأصوات التى تصدرها الحيوانات المختلفة هى شكل من أشكال اللغة ، قلنا أن هذا المنطق يخلط بين اللغة والرمز ، فإذا كانت اللغة " رمزا " إلا أنه ليس كل رمز لغة ، فقد تشير ملامح وجه الإنسان عن استحسان أمر أو استهجانه ونعتبر هذا رمزا ، والعلم الذى تتخذ كل دولة يعتبر رمزا ، لكن هذا وذاك لا يعتبر لغة ٠

وتميز الإنسان باللغة وتفرده بها هو الذى هيأ له استحقاق تلقى أول تعلم من لدن خالقه سبحانه وتعالى ، حيث قال : " وعلم آدم الأسماء كلها ٠٠٠" ، وانطلق ، تدريجيا ، على طريق الحضارة ، وخاصة عندما عرف التدوين الكتابى للغته ، مما أتاح لكل جيل أن يقف على ما توصل إليه الجيل أو الأجيال اللتى سبقته ، فتراكمت المعرفة ، مما كان من الطبيعى أن يمضى الإنسان قدما على طريق التقدم ، وبالتالى أمكن لإنسان اليوم أن يأتى بما لم يصل إليه إنسان الأمس ، كما أصبح واردا لإنسان الغد أن يزيد على ما توصل إليه إنسان اليوم ٠٠ وهكذا ٠

والحق أن الذى مكن اللغة من أن تكون زنادا للحضارة هو طبيعتها الاتصالية ، فالإنسان عادة عندما يتكلم لا يكلم نفسه وإنما هو يكلم آخر ليوصل إليه رسالة معينة ، ولو شاهدنا إنسانا يكلم نفسه لنظرنا إليه بارتياب وتصورنا أن به خلل نفسى أوعقلى ، ومن ثم فعن طريق انتقال الأفكار والمعلومات تنتشر الحضارة أفقيا عبر المكان ورأسيا عبر الزمان ، وهذا ما جعل مجموعة كبيرة من الفلاسفة المحدثين يتخذون من اللغة مجالا لتفلسفهم ، لا على اعتبار أن اللغة – كما يشيع – مجرد وعاء للفكر ، بل هى الفكر نفسه ، وأن الكثير من المعضلات الفكرية ربما يرجع إلى سوء فهم ، ومن ثم سوء استخدام للغة ، ومنهنا فقد كثفوا جهدهم من أجل تحليل كلام العلماء والمفكرين تحليلا لغويا من أجل الكشف عن مدى معقوليته ومن ثم تقبله ، وعرف هؤلاء الفلاسفة بفلاسفة التحليل ، أمثال " كارناب " ، و" فيتجنشتين " و " جورج مور " و " آير " ، و " رسل " ٠ وكان الراحل العظيم د٠زكى نجيب محمود المبشر الأساسى لهذا الاتجاه عبر عدة عقود ٠

وعندما نقول أن اللغة هى أداة اتصال ، فإننا نقول فى التو واللحظة أنها تعتمد بالدرجة الأولى على التعليم لأن التعليم هو نفسه عملية الاتصال هذه ، فإذا قلنا أن محمدا حادث سعدا عن أفكار ونظريات واتجاهات فى الفيزياء ، فإن الرسالة التى تم نقلها هنا تمت بعملية تعليم ، وعن طريق اللغة المشتركة ، ولو كان أحدهما لا يعرف لغة الآخر لاستحال الاتصال ، واستحال التعلم والتعليم بالتالى . ولا غرابة بعد هذا أن تكون السيادة دائما بين لغات العالم لتلك اللغة التى يكون لأصحابها الدور الأكبر فى إنتاج الحضارة بعناصرها المختلفة ، وهكذا رأينا العربية هى سيدة العالم فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامَية ، وهكذا نرى الآن تسيد الإنجليزية .

إن هذا من غير شك يبرز الخطورة الكبيرة للتعليم بالنسبة للغة ، سلبا وإيجابا ، فإذا ما تبين لنا أن عملية الاتصال – التعليم – لها الدور الأكبر فى صياغة العقول ، وتشكيل الهوية أدركنا خطورة ما قد يعانيه التعليم من خلل على التكوين العقلى للمجتمع وهويته ، والعكس صحيح .وهذا ما يبرر لنا ذلك الاقتران ، وتلك العروة الوثقى بين اللغة وبين الذات الثقافية ، والهوية الحضارية للأمة . ومن هنا حرص مؤسسو إسرائيل ، مثلا ، على أن يحيوا لغة ميتة مثل العبرية لتكون هى اللغة القومية للإسرائيليين واعتبروا هذه القضية قضية حياة أو موت ، خاصة وأن الجمهرة الكبرى من سكانها هم من المهاجرين ، وبالتالى ذوى لغات متعددة ، ولا يمكن تصور قيام مجتمع بغير لغة جامعة .

ولعل هذا أيضا هو التفسير الوحيد الذى يكمن وراء هذه الجهود المستميتة التى كانت تدفع دولة مثل فرنسا إبان احتلالها للجزائر لأن تغيب اللغة العربية عن العقل الجزائرى على أساس أن هذا التغييب سوف يؤدى بالتالى إلى تغييب الشعب الجزائرى عن العروبة والإسلام ، ذاتا حضارية ، وهوية قومية ، وبدلا من ذلك تعلمه الفرنسية أملا فى أن يصبغ هذا التعلم بالصبغة الفرنسية .ومن هنا كان الحرص على " تعريب " الجزائر أحد أهم المعارك التى خاضتها الثورة الجزائرية ، وما تزال ، من أجل الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية للجزائر .

وقصة الاحتلال البريطانى مع العربية كلغة تعليم قصة طويلة لا يحتملها هذا الحيز ، فقد تم إقصاؤها تدريجيا عن أن تكون لغة التعليم فى المدارس المصرية ، بنفس الحجة المعروفة التى يسهل تفنديها ، وهى تمكين الأجيال المتعلمة من حسن الاتصال بمصادر

العلم الحديث ، بيتما الحقيقة كانت تؤكد أنهم يريدون قطع سبل الاتصال بين الأجيال الجَديدة من أبناء المصريين وبين ذاتيتهم الثقافية ، ومن هنا كان أكبر انتصار للحركة الوطنية المصرية أن بدأ التعليم باللغة العربية يعود إلى مدارسنا بدءا من عام ١٩٠٧، وكان سعد زغلول هو " ناظر المعارف " – وزير التعليم – فى ذلك الوقت .

وإذا كنا نشير إلى ضعف مكانة للغة العربية فى تعليمنا اليوم ، فإننا لا نقصد بهذا توجيه اللوم إلى فرد بعينه ، فهذا تصور قاصر ، لأن المسألة تتصل بجملة من التراكمات التى أسهمت فى حصيلتها النهائية ظروف وقوى وشخصيات كثيرة مما يصعب حصره وعبر سنوات . إن تسجيل هذه الملاحظة أمر على درجة كبيرة من الأهمية رغم بدهيتها ، ذلك لأن هناك من تفوتهم مثل هذه البديهيات ، ويأخذون الحديث وكأنه يقصد هذا أو ذاك ، فتنحرف القضية عن مسار تناولها العلمى الصحيح ، وندخل فىمهاترات تتبدى فى دفاع عن باطل وسكوت عن حق واضح بين !!

وعلى الرغم من تعدد المتغيرات المؤثرة ، إلا أن تناولها جميعا أمر مستحيل ، ومن ثم فنحن مضطرون إلى الاقتصار على تناول جانبين منها ، لكن على شريطة أن نكون على وعى بأنهما يفسرا " بعض " زاوايا القضية فقط .

أول هذين الأمرين أمر القائم على تعليم اللغة العربية فى مدارسنا ، والذى تتعدد مصادره تعددا عجيبا ، من أقسام اللغة العربية فى كليات الآداب ، إلى كليات التربية ، ودار العلوم ، والأزهر ، والألسن . ومع هذا التعدد إلا أن النسبة الأكبر هى كليات التربية بحكم ما كانت وزارة التربية تلتزم به من تعيين المؤهلين تربويا أولا . وهنا نجد أن برامج إعداد هذه الفئة بالذات ، بحكم ظروف متعددة ، يفرز إلى سوق التعليم ، فاقدا لشىء نطلب منه أن يعطيه لآخرين !! أقول هذا بكل ثقة وتأكد بحكم سنوات طويلة من العمل فى هذه الكليات ، إلى الدرجة التى تجعلنى أتجرأ على رصد جائزة لمن يجد فقرة واحدة كاملة لواحد من هؤلاء تخلو من أخطاء فى اللغة العربية التى تخرج ليعلمها لأبنائنا .إننا كثيرا ما رددنا ونردد فكرة تعدد العوامل والمتغيرات المؤثرة ، لكننا نقف أمام هذا المتغير بصفة خاصة معتبرين إياه ناسفا لأى جهد آخر نفكر فى القيام به تصوييا لأوضاع تعليم اللغة العربية فى مدارسنا !

ولا نريد أن نكون مجرد " جلادين للذات " فنقصر الأمر على خريجى اللغة العربية بكليات التربية ، فالحق أيضا أن خبرتنا قد أظهرت لنا كذلك نفرا غير قليل من خريجى أقسام اللغة العربية بالكليات الأخرى ، وإذا أردنا مناقشة هذه القضية فلربما جرنا هذا إلى مناقشة كثير مما يتصل بمستوى الأداء التعليمى فى كثير من كلياتنا الجامعية ، مما يخرجنا عن دائرة القضية ، لكنه يؤكد لنا أهمية النظرة الكلية وضرورة المنهج الشامل فى تناول قضايانا التعليمية والثقافية ، فكأننا إزاء صورة من صور القانون الخاص بالأوانى المستطرقة !

والجانب الآخر الذى لابد من مواجهته بغير مزايدة ، وبكل الصراحة والصدق ، هو " وضع اللغة العربية " على خريطة التعليم فى مدارسنا ، فقد حرصنا طوال عقود عدة على أن تكون اللغة العربية هى صاحبة نصيب الأسد فى الدرجة المخصصة لها ، لكل الاعتبارات التى ذكرناها ، وهناك غيرها كثير ، بل لقد وصل الأمر فى بعض الفترات أن اعتبر الراسب فيها راسبا عموما بحيث يعيد السنة الدراسية ، بينما كان الرسوب فى أى مادة أخرى كان يتيح للطالب أن يعيد امتحانها فى الدور الثانى .

ومنذ سنوات كانت الدرجة المخصصة للغة العربية فى كل من الصفين الثانى والثالث ستين درجة ، أى مائة وعشرين درجة فى العامين ، فإذا بالأمر يتغير ويصبح المخصص لها فى العامين معا ، خمسون درجة ، ثم زيدت إلى ستين ، أى أن هذه الدرجة لحقها خفض بنسبة خمسين فى المائة . وهكذا تمخض الأمر عن أن تكون هناك مواد أخرى تدرس فى الصف الثانى وحده مخصص لكل منها خمسون درجة بينما للغة العربية ثلاثون فقط . ولما كان طالبنا ، مع الأسف الشديد يبذل من الجهد فى التعلم بمقدار ما يكون للمادة من وزن فى المجموع الكلى للدرجات ، كان طبيعيا أن يضعها معظم الطلاب فى المرتبة الأخيرة فى سلم الأولويات ، وبالتالى لا يكفينا ما حدث للغة العربية فى أجهزة التثقيف والإعلام ، وضعف معلميها الجدد ، وإنما يزداد الطين بلة ، وتصرخ لغة الضاد مما نفعله بها !!

إن الخطورة الكبيرة الحادثة الآن هى الضعف المتواصل لما يمكن أن يربط أجيالنا الحديثة بالموروث الثقافى للأمة العربية عبر القرون المختلفة ، فضعف أداة الاتصال يترتب عليه بالضرورة التباعد التدريجى عن هدف الاتصال .. لقد ظللنا آلافا من السنين لا

نستطيع قراءة ، وبالتالى ، معرفة التراث الحضارى لمصر الفرعونية حتى استطاع العلماء أن يفكوا شفرة اللغة الهيروغليفية ، وإن الإنسان منا ليضع يده على قلبه خوفا من أن تتحول العربية إلى " هيروغليفية " أخرى بالنسبة لأجيالنا القادمة إذا لم نتدارك الأمر بكل جدية وبسرعة .

إننى أفزع كثيرا عندما يستقوفنى كثير من الطلاب بالجامعة فى السنوات الأخيرة ، يستفسرون عن معانى كلمات كثيرة فيما أكتبه لهم ، رغم سهولتها وبساطتها ، وأتساءل بينى وبين نفسى ، فهل يستطيع هؤلاء أن يقرءوا لطه حسين والعقاد وهيكل ، فضلا عن الطهطاوى وعلى مبارك والمويلحى؟ ولا يخطر ببالى أبدا إمكان أن يقرءوا سطرا لابن سينا والكندى والفارابى ، أو للجاحظ ، أو شعرا للبحترى وابن جرير والفرزدق !!

لابد من تطوير برامج إعداد معلم اللغة العربية ، والتعامل مع هذه القضية لا على أنها مسألة فنية تخص نفرا من خبراء وأساتذة تعليم اللغة العربية وحدهم وإنما باعتبارها قضية ثقافية قومية كبرى تتضافر عليها جهود كثيرين مما يمكن أن يسهموا فى مواجهتها مواجهة منهجية علمية ثقافية ، ذلك لأن لها أبعادا أخرى متعددة ومتنوعة مما يدخل فى اختصاص آخرين واهتماماتهم .

ولابد من إعادة الاعتبار إلى اللغة العربية فى تعلمينا لتحتل ما هو مفروض لها من صدارة وأولوية ، وخاصة من حيث الدرجات المخصصة للامتحان فيها ، فما حدث هو نكسة خطيرة نبه عليها كثيرون ، ومع الأسف الشديد فما زال الأمر على ما هو عليه منذ أن استحدث هذا النظام فى امتحان الثانوية العامة عام ١٩٩٤ ، وكأن الأمر لا يشكل خطورة على مستقبل أمتنا فى مصر .

إننا نهيب بكل من بيدهم الأمر أن ينظروا إلى القضية على أنها جوهر الذات الثقافية لأمتنا ، ومن ثم تتقدم كثيرا من القضايا الأخرى ، ونترك جانبا تبادل الاتهامات ، ومحاولة كل ، إلقاء اللوم على الآخر ، بغية كسب جولة من تلك المعارك البيزنطية الفارغة .. فالأهم هو أن نكسب أمتنا ، ولن نكسب أمتنا إلا إذا كسبنا مستقبلها ، ولن نكسب مستقبلها إلا إذا كسبنا ذاتنا الحضارية ، ولن نكسب ذاتنا الحضارية إلا إذا كسبنا لغتنا القومية .

---

* الشعب ، ١٩٩٩/١١/٥

استهلاك الأغنياء واستهلاك الفقراء !

منذ سنوات بعيدة ، وإبان احتدام الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية ، كان من الأخبار التى صافحتها عيناى وأثارت دهشتى ، ولم يسعفنى مستوى الوعى السياسى الذى كنت عليه فى هذه الفترة أن أدرك مغزى الخبر ، أن المخابرات المركزية الأمريكية كانت حريصة حرصا شديدا على تلقف أكياس " الزبالة " الخارجة من السفارة السوفيتية وإخضاعها للعمليات فرز وتحليل لقراءة مغزاها والتعرف على دلالاتها ، وبالتالى فلم تكن العملية تنطوى على بحث عن أوراق ووثائق مهمة ، فلم يكن هؤلاء وهؤلاء على درجة من السذاجة تسمح بالإبقاء على مخلفات هذه الفئة المهمة ، ولكن ، ربما أشارت علب أدوية فارغة عن مرض أو أمراض معينة لدى هذا أوذاك من أعضاء السفارة ، بل إن نوعية مخلفات الغذاء يمكن أن تشير إلى أمور قد تبدو سطحية أمام كثيرين ، لكنها أمام العاملين فى أجهزة المخابرات قد تحمل دلالات على جانب كبير من الأهمية .

تذكرت هذا على الفور وأن أتصفح بسرعة آخر تقرير عن التنمية البشرية فى العالم (١٩٩٨) المنشور لحساب برنامج الأمم المتحدة الإنمائى UNPD ، فما أن لمحت أن المحور الأساسى لتقرير هذا العام عن " الاستهلاك " حتى قادتنى بعض رواسب سذاجة ، وبقايا غفلة ، إلى أن أطرحه جانبا ، شاعرا بفتور واضح وقلة اهتمام .لكن الفضول أبى أن يتركنى لهذه الجوانب المتخلفة ، فأسرعت أقلب عيناى بين بعض السطور وبعض الأرقام ، فإذا بى أجد أمامى ما يثير الانتباه ، ويثير التفكير ، وإذا بى بالتالى أمضى فى القراءة بنهم شديد ، وكأنى أشاهد أحد فصول مسرحية للراحل يوسف وهبى ، وتطن فى أذنى عبارته الشهيرة التى لا شك يذكرها كبار السن مثلى : " يا للهول !! ".فالاستهلاك مرآة غاية فى الصدق والدلالة على العديد من الجوانب والأمور : مستوى المعيشة والدخل ، والمعرفة ، والصحة ، والمستوى الاجتماعى ، ووزن القوة فى عالم اليوم .

وقبل أن نمضى فى بيان ذلك ، فليأذن لى القارىء بأن أقف به أولا أمام مدى الأهمية لمثل هذه التقارير ، فتقارير التنمية البشرية بدأ صدورها منذ عام ١٩٩٠ عن برنامج الأمم المتحدة ، واقتفت كثير من دول العالم إثره ، ومنها مصر ، فبدأنا نشهد صدور أول تقرير

للتنمية البشرية عن مصر منذ عام ١٩٩٤ ، ف ١٩٩٥ ، ثم ١٩٩٦، ولا أدرى إذا كان قد صدر بعد هذه التقارير الثلاثة شيء أم لا ٠

إن التقدم المذهل لحركة المعرفة الإنسانية لا يتبدى فقط فى اختراعات وعلوم جديدة ، ففى رأيى المتواضع أن صدور مثل هذه التقارير إنما هو صورة من صور التقدم العقلى والرقى الفكرى ، فهى توفر للقراء فى مختلف أنحاء العالم صورة بانورامية عن حالة التنمية البشرية ، خاصة وأنهم قد توصل إلى مقاييس أقرب ما يمكن إلى الدقة والموضوعية والشمول٠ صحيح أنها عادة صورة مفزعة ، تثير الرعب ، لكنها شكل من أشكال التشخيص ، فلعلنا ، عندما نقف على حالى البنية العالمية من الناحية الإنسانية ، نتحرك فى اتجاه التصويب والتصحيح ٠

لقد ألف كثيرون ، عبر سنوات طويلة ، أن يمايزوا بين الأمم والشعوب بناء على مستوى دخل الفرد، وبعد خبرات متعددة ، ودراسات مختلفة ، أيقن المتخصصون أن هذا معيار خادع ، لو تصورنا أنه وحده يمكن أن يصور لنا الفروق والتباينات والمستويات ٠ ولقد كان هذا الاعتماد على معيار دخل الفرد ، بفعل غلبة النظرة الاقتصادية الضيقة التى كانت حاكمة ، والتى كانت تتصور التنمية تنمية اقتصادية بالدرجة الأولى ، فإذا بنا نتبين ، أن التنمية يستحيل أن نقصرها على جانب دون آخر ٠٠ إنها حركة نهوض كلى ، ومسيرة تقدم شامل ٠٠ ليس هذا فحسب ، وإنما تتمحور كلها حول هذا الإنسان ٠٠ خليفة الله على الأرض ، فمنه تستمد أهداف التنمية وتوضع قواعدها ووسائلها ومسالكها ،وبه تتم هذه التنمية ، ومن أجله تنفذ وتتحقق أيضا ، ومن هنا فهى ليست مجرد جمع لتنمية اقتصادية وتنمية اجتماعية ، ولكنها بالأحرى تنمية " بشرية " ، وتقاس " بحزمة " من المقاييس والمعدلات التى اتفق عليها : مستوى القراءة والكتابة ، العمر المتوقع ، الخدمات الصحية ، مستوى المعيشة ٠٠ إلخ ٠

وبناء على هذا يعتبر الاستهلاك وسيلة جوهرية للتنمية البشرية ، فلكى يستهلك الناس ، لابد أن ينتجوا ما هم بحاجة إلى استهلاكه ، وكلما اتسعت دائرة الاستهلاك فإن هذا يعنى ضرورة اتساع دائرة الإنتاج والتنمية ، والعكس صحيح ، وهو الأمر الذى نلمسه فى حياتنا المعاصرة ، فهذا التغيير المتلاحق المستمر للموديلات والأزياء ،مثلا ، يوسع دائرة الاستهلاك ، حتى لا تتوقف حركة المصانع والشركات ، ونضطر نحن إلى تغيير ما بأيدينا ،

على الرغم من أنه لم يبل بعد ، لأنهم ماهرون فى الدعاية والإعلان لتغيير الأذواق ، ، فنظل نلهث وراء الاستهلاك ، لتظل دورة العمل فى سرعتها المتزايدة ، وكأن الإنسان قد أصبح مثل هذا " الثور " الذى كنا نراه مربوطا إلى " ساقية " ، يظل يلف ويدور ، واضعين على جانبى عينيه حاجز رؤية ، حتى لا ينشغل بشى آخر غير اللف والدوران !!

لكن هذا لا يعنى أبدا إنكار أن الاستهلاك يظل هو الحافز الرئيسى على توسيع قدرات الناس لكى يحيوا حياة طويلة ويحيوا حياة جيدة . ويتيح الاستهلاك فرصا بدونها يترك الشخص فى حالة فقر بشرى :

. فالغذاء والمأوى والماء والصرف الصحى والرعاية الطبية والملبس كلها أشياء ضرورية لكى يحيا المرء حياة طويلة وصحية .

. والتعليم المدرسى والحصول على المعلومات من خلال الكتب والإذاعة والصحف – والشبكات الإلكترونية بدرجة متزايدة – كلها أشياء ضرورية لاكتساب اللغة بمعرفة القراءة والكتابة والعد الحسابى وأحدث المعلومات .

. والنقل والطاقة مدخلان حيويان بالنسبة لجميع هذه الأشياء وبالنسبة لجميع الأنشطة الأخرى تقريبا ، ويتزايد الدليل على نقص الحركة وإمكانية الوصول هما لب تمكين المرأة اقتصاديا واجتماعيا .

وتعتمد المشاركة الاجتماعية كذلك على الاستهلاك ، فالهدايا التى نتبادلها فى المناسبات هى " لغة اجتماعية " أساسية توثق الروابط وتقوم بعملية ترطيب للعلاقات بين الناس . بل إن بعضنا يتخذ من الملبس والسكن والمأكل والنقل إشارات دالة على مدى إمكانية إقامة علاقة أم لا ، ونعبر عن ذلك بالقول : أن هذا من مستوانا ، ونرحب بالتعامل معه ، والعكس أيضا ، إن هذا ليس من مستوانا فلا ينبغى أن نتعامل معه !

ويخطىء من يظن أن للاستهلاك مظاهره المادية وحدها ، فهناك العديد من المظاهر الاجتماعية والخدمات ، مثل الرعاية الصحية والتعليم ، على سبيل المثال ، بل ونوع الموسيقى والأغانى التى نستمع إليها ، وبعض مظاهر الجمال والتذوق الفنى على وجه العموم .

والاستهلاك مثله مثل " القمر " ، له وجهه المشرق المنير ، وله أيضا وجهه المظلم الكئيب ، له إيجابياته المفيدة ، كما أن له سلبياته الضارة ، وهذا مما نتبينه مما يلى :

فمن إيجابياته : أن الإقبال على أنواع معينة من الغذاء ، والتنويع فيها والإقبال على بعض الأدوية والأمصال الواقية ، وشرب المياه النقية ، كل هذا كان من شأنه أن يخفض معدلات الوفاة ، وخاصة بين الأطفال ، ويسهم فى رفع العمر المتوقع ٠ ومنه أن الإقبال على استخدام وسائل النقل المتطورة السريعة سهل الكثير من قضاء المصالح ، وسرعة الإغاثة ، وتوفير الوقت ، وبالتالى إتاحة الفرصة لمزيد من الأعمال الأخرى ٠ ووسائل وأدوات التبريد أتاحت لكثيرين أن يعيشوا فى مناطق كان من العسير العيش فيها ، وأتاحت للغالبية الاحتفاظ بالمأكولات فترة طويلة دون أن تتلف ، وتوفير الوقت فى إعداد طعام جديد ، أو إنفاقه فى شراء مأكولات لإعدادها ٠٠ وهكذا

أما الوجه المظلم ، فيظهر لنا من خلال ما يضطر إليه كثيرون من شرب مياه غير نقية ، يمكن أن يؤدى إلى أمراض متعددة ، واستخدام روث البهائم والأخشاب وقودا للطهى ، كما كنا نرى فى قرانا الريفية ، من شأنه أن يسبب أمراضا للرئة ، ولربما تكون بعض الأجهزة والمعدات الكهربائية التى يستخدمها بعض الناس معيبة ، مما قد يوقعهم فى براثن الموت أو الإصابات الخطيرة ، وحدث ولا حرج عما يؤدى إليه استخدام غير رشيد لوسائل النقل من حوادث مفجعة ، وكوارث محققة ، وتبديد لثروات مادية ، وما قد يؤدى إليه عدم الدقة فى استخدام مصادر الطاقة الحديثة من حرائق ، وصور دمار ، أما ما يحدث من تطورات للأسلحة العسكرية ، فهذا باب واسع يدخل منه ما يصعب حصره من الكوارث !

ويؤدى التزايد المستمر فى الاستهلاك إلى ضغوط غير متصورة على البيئة ، والإخلال ببعض صور التوازن بين قدر من عناصرها إلى الدرجة التى ترتب عليها ما يسمى " بثقب الأزون " وما أصبح ملموسا ، نتيجة لذلك من تغير ولو طفيف فى درجات الحرارة ، كذلك ما نسمعه كل يوم عن مشكلات التلوث ، بشتى صوره ، وما يؤدى إليه هذا من أضرار صحية عديدة ، والتآكل التدريجى لبعض الموارد ، والاعتداءات المستمرة للإنسان على بعض الكائنات الحية من الحيوانات والطيور إلى الدرجة التى تهددها بالانقراض ٠

والمؤسف حقا أن التباينات المشهورة بين الأغنياء والفقراء تظهر هنا بشكل جلى ، فإذا كان الاستهلاك المتزايد يشكل ضغطا على البيئة ، فإن الفقراء هم الذين يدفعون الثمن فى

الغالب ، لتتضاعف بذلك مشكلتهم ، بحيث لا تتوقف عند حد الحرمان مما يقطفه الأغنياء من ثمار البيئة ، وإنما تتجاوز ذلك لتصل إلى درجة المعاناة من مشكلاتها .

. وعلى سبيل المثال فإن الطفل الذى يولد فى العالم الصناعى يضيف إلى الاستهلاك والتلوث على مدى حياته أكثر مما يفعل ذلك ٣٠ إلى ٥٠ طفلا يولدون فى البلدان النامية .

. ومنذ عام ١٩٥٠ تمثل البلدان الصناعية ، بسبب ارتفاع مستويات الدخل والاستهلاك فيها أكثر من نصف الزيادة فى استخدام الموارد .

.ويتسبب خمس سكان العالم ممن يعيشون فى البلدان ذات أعلى دخل فى ٥٣٪ من انبعاثات ثانى أكسيد الكربون ، بينما يتسبب أفقر خمس فى ٣٪ فقط .

. ويتعرض بليون شخص تقريبا فى ٤٠ بلدا ناميا لخطر فقدان إمكانية حصولهم على مصدرهم الأساسى للبروتين ، حيث أن الإفراط فى صيد الأسماك بدافع من الطلب التصديرى على الأطعمة والزيوت الحيوانية يفرض ضغوطا على الأرصدة السمكية .

. والفقراء هم الأكثر تعرضا للأدخنة وللأنهار الملوثة ، وهم الأقل قدرة على حماية أنفسهم ، فمن بين عدد حالات الوفيات التى تحدث كل سنة نتيجة لتلوث الهواء والتى يقدر عددها ب ٢,٧ مليون حالة ، تنجم ٢,٢ مليون حالة نتيجة للتلوث داخل المنازل ، ويكون ٨٠٪ من الضحايا هم فقراء الريف فى البلدان النامية . والدخان الذى ينبعث من الحطب وروث البهائم أخطر على الصحة من دخان التبغ .

والعولمة لا توحد فقط التجارة والاستثمار والأسواق المالية ، بل توحد أيضا الأسواق الاستهلاكية ، ويترتب على ذلك أثران ، أحدهما اقتصادى والآخر اجتماعى ، فالتوحيد الاقتصادى أدى إلى تسارع فتح أسواق استهلاكية تتسم بتدفق منتجات جديدة باستمرار ، وتوجد منافسة شرسة للبيع للمستهلكين على نطاق العالم ، مع استخدام دعاية تزداد شدتها .

أما من الناحية الاجتماعية فإن الحدود المحلية تنهار بإقامة مستويات وتطلعات اجتماعية ، فإن الحدود المحلية والوطنية تنهار بإقامة مستويات وتطلعات اجتماعية فى مجال الاستهلاك ، فبحوث السوق تحدد " صفوة عالمية " و " طبقة وسطى عالمية " تتبعان نفس أنماط الاستهلاك ، وتبديان تفضيلا ل " ماركات عالمية " . وهناك ما يمكن تسميته ب " المراهقون العالميون " ، ويقدر عددهم بحوالى ٢٧٠ مليونا تتراوح أعمارهم بين ١٥ و

١٨ عاما ، يعيشون فى ٤٠ بلدا - الذين يعيشون " حيزا عالميا " ، وهو عالم " البوب " الأحادى ، حيث يستهلكون نفس شرائط الفيديو والموسيقى ويمثلون سوقا هائلة لأحذية الجرى وال " تى شيرت " و الجينز ، التى تحمل أسماء مصممى الأزياء .

ومع كل ما قلنا ، وما سوف نقوله ، فلا يمكن إنكار أن سوق الاستهلاك قد شهد عددا من الإنجازات التى تتجه إلى حياة أكثر اطمئنانا ومتعة ، ففى مجال االصحة نجد أن العمر المتوقع عند الولادة قد زاد خلال السنوات إل ٣٦ الماضية فى البلدان النامية ، من ٤٦ سنة إلى ٦٢ سنة .

وما زال متوسط العمر المتوقع فى البلدان الصناعية يتزايد ، مسهما فى شيخوخة السكان بدرجة كبيرة ، إذ نجد اليوم حوالى ١٥٠ مليونا من تلك البلدان ، يمثلون ١٣٪ من مجموع عدد سكانها تبلغ أعمارهم ٦٥ عاما أو أكثر ، وأن أكثر من ٣٥ مليونا تبلغ أعمارهم ٨٠ عاما أو أكثر ، مما يشكل عبئا متزايدا على الخدمات الصحية والاجتماعية التى تؤدى لهم . ومن الملاحظ أن متوسط العمر بالنسبة للإناث قد زاد بسرعة بنسبة ٢٪ عن السرعة التى زاد بها العمر المتوقع للذكور .

ولقد انخفض معدل وفيات الرضع فى البلدان النامية خلال السنوات الخمس والثلاثين الماضية بأكثر من النصف ، من ١٤٩ حالة لكل ١٠٠٠ مولود حى فى عام ١٩٦٠ إلى ٦٥ حالة فى عام ١٩٩٦ .

وزادت معدلات معرفة القراءة والكتابة بين البالغين فى البلدان النامية خلال الفترة من عام ١٩٧٠ إلى ١٩٩٥ بمقدار النصف تقريبا - من ٤٨٪ إلى ٧٠٪ . ولابد من التنويه بأن معدلات التحسن بالنسبة للإناث تزيد عن مثيلتها بالنسبة للذكور ، لتضيق الفجوة بينهما شيئا فشيئا .

لكن صورة التباينات بين الأغنياء والفقراء قاتمة إلى حد كبير ...

- ففى عام ١٩٦٠ كان ٢٠٪ من سكان العالم الذين يعيشون فى أغنى البلدان يزيد دخلهم ٣٠ مرة عن دخل أفقر ٢٠٪ . وبحلول سنة ١٩٩٥ كان دخلهم يزيد ٨٢ مرة عن دخل النسبة الأخيرة .

– وفى البلدان النامية ٤٣٪ من الرجال فى الريف أميون ، وهى نسبة تزيد عن ضعف النسبة الموجودة فى المناطق الحضرية

حتى المرض ، هناك تمييز وتباين ..

فمنذ أن عرف مرض نقص المناعة " الإيدز " قبل ١٨ سنة ، راح ضحيته ١٢ مليون نسمة . وفى عام ١٩٩٧ كان حوالى ٣١ مليون شخص يعيشون وهم يحملون فيروس نقص المناعة البشرية ، بعد أن كان العدد المقابل فى العام السابق له ٢٢,٣ مليون شخص . وهذه الزيادة الهائلة تبين زخم الوباء ، حيث تحدث ١٦٠٠٠ إصابة جديدة يوميا ، منهم ٩٠٪ فى البلدان النامية ، ويقدر عدد المصابين عام ٢٠٠٠ بحوالى ٤٠ مليون شخص .

ويوجد الآن ٨,٢ مليون طفل يتيم بسبب وفاة أمهاتهم أو آبائهم نتيجة الإصابة بهذا المرض ، ويقدر أن هذا العدد سوف يصل إلى ١٦ مليونا بحلول عام ٢٠٠ .

ولقد قفزت الخسائر فى أرواح المدنيين من ٥٪ نتيجة الوفيات المرتبطة بالحروب فى بداية القرن إلى أكثر من ٩٠٪ فى حروب التسعينيات . وفى الشيشان كان الأطفال يمثلون ٤٠٪ من جميع الخسائر بين المدنيين خلال شهرى فبراير ومارس عام ١٩٩٥ ، وفى سيراييفو ، البوسنة ، أصيب طفل بين كل أربعة ، وفى الصومال مات نصف أو أكثر من نصف جميع الأطفال دون سن الخامسة .

وليسمح لنا القارىء بعرض صورة رقمية كاريكاتورية – ولكنها حقيقية – مقارنة لأولويات العالم فى الإنفاق السنوى :

– ففى الوقت الذى تقدر فيه التكلفة السنوية الإضافية التقديرية لتعميم التعليم الأساسى للجميع فى البلدان النامية ب ٦ بلايين دولار ، ينفق على أدوات التجميل فى الولايات المتحدة ٨ بلايين دولار .

– وفى الوقت الذى تبلغ فيه نفس التكلفة لتعميم المياه والصرف الصحى للجميع فى البلدان النامية ب ٩ بلايين دولار ، تستهلك أوربا ١١ بليون دولار للأيس كريم .

– وبينما تبلغ تكلفة الصحة الإنجابية لجميع النساء بالدول النامية ١٢ بليون دولار ، ينفق ١٢ بليون دولار على العطور فى الولايات المتحدة وأوربا .

- وينفق على أغذية الحيوانات المنزلية فى أوربا والولايات المتحدة ٣٥ بليون دولار .
- وعلى الترفيه عن رجال الأعمال فى اليابان ٣٥ بليون دولار .
- و٥٠ بليون على السجائر فى أوربا .
- و ١٠٥ بلايين دولار على المشروبات الكحولية فى أوربا .
- أما مقدار ما يستهلكه العالم على المخدرات فيبلغ ٤٠٠ بليون دولار .
- لكن الإنفاق العسكرى العالمى يصل إلى ٧٨٠ بليون دولار .

فإذا جمعنا لك ، أيها القارىء ، ما ينفق على البنود الأربعة الأخيرة ، فسوف تجد أن حاصل الجمع هو : ١٦٣٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ (تسع أصفار) ، وتخيل لو أنفق هذا المبلغ على سكان العالم الذين يبلغ عددهم ما يقرب من ست بلايين نسمة ، تعليما وصحة ومأوى ، فماذا سوف يكون الحال؟ هل تدرك الآن ، إلى أى حد يصل إجرام الإنسان فى حق نفسه ؟

ولتنظر معى إلى مشهد آخر للتفاوتات البشعة بين بنى البشر :

- من حيث النواحى الصحية والنقل :

مياه نقية	١,٢ بليون نسمة محرومون من الحصول على مياه مأمونة .
مأوى	بليون نسمة بلا مأوى لائق .
غذاء وتغذية	٨٤١ مليون نسمة يعانون من سوء التغذية .
رعاية صحية	٨٨٠ مليون نسمة لا يحصلون على خدمات صحية .
صرف صحى	٢,٦ بليون نسمة لا يحصلون على صرف صحى .
طاقة	بليونا نسمة محرومون من الكهرباء .
نقل	٣ سيارات لكل ١٠٠٠ شخص فى أقل البلدان نموا ، و١٦ فى البلدان النامية و٤٠٥ فى البلدان الصناعية .

- من حيث مستوى المعيشة : الحصول على الحد الأدنى من الموارد المالية

١,٣بليون نسمة فى البلدان النامية يعيشون على اقل من دولار واحد يوميا ،

٣٢٪ فى البلدان ذات الاقتصاديات التى تمر بمرحلة انتقال يعيشون على أقل من ٤ دولار يوميا ،

و١١٪ فى البلدان الصناعية يعيشون على أقل من ١٤,٤٠ يوميا .

- ومن حيث المعرفة :

التعليم المدرسى	١٠٩ مليون طفل(٢٢٪ من الأطفال فى سن التعليم الابتدائى) خارج المدارس
المعلومات	٨٨٥ مليون أمى بالغ (أعمارهم ١٥ سنة أو أكثر)
	٤ نسخ من صحف يومية توزع لكل ١٠٠٠ شخص فى البلدان النامية ، و٣٦ فى البلدان الصناعية .
الاتصال	٣ خطوط هاتف لكل ١٠٠٠ نسمة فى اقل البلدان نموا ، و٤٠ فى البلدان النامية ، و٤١٤ فى البدان الصناعية .

ذلك عزيزى القارىء بعض من كل ، فمثلما يردد القول الشائع ، " وما خفى كان أعظم " ، نقول لك ، أن هناك ، غير ما عرضنا لك ، ما هو أكثر مدعاة للفزع حقا .

هل نسوق لك كل هذا دفعا لك على طريق لطم الخدود والبكاء والعويل ؟ كلا ..

لا تنتظر منا " روشتة " للخروج من المأزق ، فكما ترى ، المشكلة تتسع باتساع الكرة الأرضية ، واللاعبون على أرض الملعب قوى كبرى مهيمنة ، وأباطرة ، يتوارى أمامهم الاسكندر الأكبر ورمسيس الثانى وجينكيزخان ونابليون وغيرهم خجلا من ضآلة ما كانوا يفعلون !.

تستطيع الآن أن تفهم ، لم تعربد هذه الدولة أو تلك دون أن تخاف من يقف فى مواجهتها ليردعها ، ولماذا تقف مجموعات كاملة من الدول - مثل الدول العربية - كصخرة ملقاة على الأرض ، لا حول لها ولا قوة ، وماذا تكون نتيجة ما يسمى بالمفاوضات بين هذا الطرف وذاك ، فى ضوء موازين القوة ، القوة التى لم تعد مجرد عضلات ، وأسلحة نارية ، ولكنها " حزمة " من معدلات النهوض العام فى التنمية البشرية ، هى التى تحدد المستويات والمراتب ، وفى نفس الوقت تحدد - سلفا - نتيجة أية مفاوضات ، وأية منازعات ، وأية صورة من صور الصراع .

---

* الشعب ، ١٩٩٩/١١/٢٦

مكارثيـة جديـدة !!

منذ أواخر الأربعينيات اجتاحت الولايات المتحدة حمى محاربة الشيوعية ، نظراً لما لمسته عقب الحرب العالمية الثانية من توسع ملحوظ فى رقعة الدول القائمة على الفلسفة الماركسية ، وانتشار لا ينكر للجماعات والاتجاهات الماركسية فى أنحاء شتى من العالم . وظهرت هناك فى الولايات المتحدة لجنة خاصة تتعقب ذوى الاتجاهات الماركسية بين مواطنيها لتتخذ إزاءهم إجراءات مضادة ، على الرغم من قيام المجتمع الأمريكى نفسه على " الليبرالية " التى تتيح الفرصة لكل إنسان أن يعتنق ما يراه صوابا من آراء وأفكار ، لكن هذ اللجنة زعمت أنها تريد حماية " ثوابت " الأمة الأمريكية ونظامها وقيمها الأساسية زاعمة أن الاتجاه الماركسى من شأنه أن يهدم هذه الثوابت ويزعزع هذه القيم ويزلزل هذا النظام الأساسى . وشاع مصطلح " المكارثية " ليعنى تلك الحرب العوان التى تشن ضد من يسعون لتقويض الدعائم الأساسية للمجتمع الأمريكى .

ولم يكن هذا النهج من التعامل مع " الآخر " جديدا على البشرية ..

فمنذ قرون عدة ، دائما ما يسعى النظام القائم إلى محاربة معارضيه الأشداء ، وفى سبيل ذلك تشن أعنف الحملات ، وتذاع أقذع التهم ، وتسخر كافة وسائل الدعاية والدعوة للتشهير بالخصوم ، ومن ثم يصبح القضاء عليهم وكأنه خطوة لابد منها لتثبيت النظام القائم ، ومن أبرز الأمثلة التاريخية ، تلك الحملة التى شنت على الإمام أحمد بن حنبل أيام خلافة المأمون ، فيما عرف بمحنة خلق القرآن ، وكذلك ما حدث لابن رشد .. وهكذا

وفى مصر ، ومنذ الثلاثينيات ، وبصفة خاصة فى الأربعينيات ، اشتدت الحملة على من يعتنقون الآراء الماركسية ، وكان الوصف الذى شاع عنهم أنهم من أصحاب " المبادىء الهدامة " !! حتى هؤلاء الذين تفوح فى كتاباتهم وآرائهم أفكار تتعلق بالدفاع عن الفقراء والمستضعفين ، والمطالبة بالعدل الاجتماعى ، لم يسلموا من أن تلحقهم تهمة " المبادِىء الهدامة " ، كما رأينا بالنسبة للراحل العظيم خالد محمد خالد وغيره ممن ساروا على نفس الدرب !

وطوال عهد ثورة يوليو ١٩٥٢ كان من الطبيعى أن تسعى إلى إقصاء الفكر المضاد لما جاءت به ، وأن تعزل أصحابه عن مواقع القيادة فى مجالات العمل المختلفة ، واشتهر فى سنتيها الأوليين تعبير " التطهير " ، أى تطهير مواقع العمل من " أعداء الثورة " . والمشكلة التى حدثت أن نفرا ممن يظهرون فى كل زمان وفى كل مكان من كدابي الزفة وضاربى الدفوف والمتسلقين وأصحاب المصالح الخاصة مارسوا الهواية الشهيرة : التشهير بمن يريدون إقصاءهم من أمامهم بحق أو بغير حق ، فيدسون ويزيفون التقارير التى تقول بأن هذا معادى للثورة ، وذاك من أنصار العهد البائد ، وبفعل هذا النهج أضير أبرياء وحرمت مصر - فترة - من عدد من الكفاءات العظيمة ، وأظهر مثال لهذا هو ما شهدته الجامعة مما سمى ب " حركة تطهير " والتى أقصت ما يزيد على الخمسين أستاذا كانوا من أكفأ الأساتذة !

ومنذ أوائل الثمانينيات أخذت مصر تشهد ظاهرة شاذة تمثلت فى أن نفرا عميت بصيرتهم فأخذوا يروعون الناس بحوادث تدمير وقتل ، وكانت المأساة أن تم هذا بيد من يزعمون رفع راية الدين الإسلامى ، ووجه المأساة أن هناك تناقضا شديدا بين أصول العقيدة الإسلامية وبين ترويع الآمنين وإزهاق النفوس وإشاعة التخريب ، وأصبح يطلق على هؤلاء المارقين الخوارج مصطلح " الإرهاب " . وكالعادة كانت تلك فرصة أخرى لعدد ممن فى قلوبهم مرض كي يلقوا مزيدا من النار على " الفتنة " ويشرعوا بدورهم سلاح " إرهاب " مضاد فى وجه من يخالفون توجهاتهم وخاصة من ذوى الاتجاه الدينى ورميهم بأنه " إرهابيون " . حتى إذا صرخ هؤلاء أنهم لا يحملون سلاحا ، وأنهم يجادلون بالتى هى أحسن وينبذون العنف ، ألقى على كل ما يقولون قذائف التشكيك ، بل والاتهام بأنهم مجرد " ستار " لتيار العنف المسلح ، بل والقول أنهم هم الذين " يقعدون " وينظرون " لهم !!

ومنذ حادث الأقصر اللعين ، وتولى حبيب العادلى وزارة الداخلية ، ونحن نلاحظ انحسارا شديدا لتيار العنف المسلح ، لتعود البسمة إلى وجه هذا البلد الأمين ، ويلتفت أبناؤه إلى ما نحن بحاجة إليه من جهود تنمية وتفكير ، وبدأنا نحمد الله أن بدأت حدة الاتهام بالإرهاب والتطرف بدورها تخف ، فلا يصبح الممسك بدينه ممن لا صلة لهم البتة باتجاه العنف ، كالقابض على الجمر خوفا من اتهام ظالم ..

لكن ، فيما يبدو ، ما زال نفر لا يريد أن يلقى هذا السلاح المقيت ، ويوقف تلك الاسطوانة المشروخة بالمسارعة باتهام من يخالفه فى الرأى بأنه يروج للإرهاب والتطرف .. إنهم المكارثيون الجدد ، وآخر الأمثلة التى شهدناها مؤخرا ، أن يتهم من يريدون تخصيص فترة فى سنوات الطفولة الأولى من حياة أبنائنا لحفظ أجزاء من القرآن الكريم بأنهم بهذا يريدون تهيئة التربة لبذر بذور التطرف والإرهاب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !! ماذا أقول ، وبماذا أرد ، وكيف أناقش هذا الاتهام " المكشوف " ، والذى يعلن عن حالة " تطرف " و " غلو " فى الاتهام وفى الدفاع ؟!

إننى لأخجل حقا من مواصلة المناقشة والجدل ، فليست هناك فى حقيقة الأمر قضية ذات بال ، وخلاصة الأمر ، كى نضع الأوراق مكشوفة أمام القارىء أن د. نعمات فؤاد دأبت على أن تتخذ موقفا نقديا من سياسات وزارة التربية ، وحججها واضحة ، وبراهينها قوية ، وبيانها ناصع ، لكن كيف لها أن تفعل هذا ، والوزارة (هكذا يقول سلوكها فى موقفها إزاء كل من يخالفها) لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ؟ هنا لابد من أن تقذف الكاتبة الكبيرة بالطوب وبالحجارة ، بل وكذلك كل من تسول له نفسه مؤازرتها فى رأيها .

من يرهب من ؟!

---

* الشعب ، ١٩٩٩/٩/٣

تلفزيون رمضان !

لست فى حاجة إلى أن أكرر ما هو معروف لدى الكافة عن السلوك الواجب أن يسلكه المسلمون فى شعر رمضان ، وأن ضخامة المسئولية عن هذا السلوك ترتفع وتدق وتعمق بمقدار خطورة القائم عليها ، فمسئولية الإبن ، خاصة إذا كان دون سن الرشد ، ليست فى مستوى ودرجة مسئولية أبيه ، ومن هنا ننظر بقدر كبير من الاهتمام إلى جهاز الإعلام عامة ، والتلفزيون خاصة باعتباره يحمل مسئولية تفوق مسئولية أى مؤسسة أخرى فى مجتمعنا المعاصر لما هو معروف عن خصائص وميزات أصبح معترفا له بتفوقه فيها على غيره ، حتى مؤسسات التعليم النظامى منها وغير النظامى !

ونحن لابد أن نقر ونعترف ابتداء بأن تلفزيوننا يقدم لنا فى شهر رمضان برامج دينية ممتازة وأحاديث لعلماء دين كبار أفاضل ، ولكن ، هل يصح أن" ننقع " حلوى فى " سكر معقود " ثم " نرش " عليها ملحا ؟ هل نأخذ بالشمال ما أعطيناه باليمين ؟ هل نبادر بالأحضان والقبلات ثم ننتبعها بالركلات والصفعات ؟ هل نقوم للصلاة وندعو الله ونقرأ القرآن ، ثم نقوم لشرب الخمر والرقص والقول بما يغضب الله ؟ إن هذا هو ما يحدث على شاشة التفزيون فى رمضان ! ، فبالإضافة إلى هذه البرامج الدينية المتميزة والأحاديث رفيعة المستوى ، نجد التلفزيون يحتفى بهذا الشهر الفاضل الكريم بما يلى :

– أحاديث حوارية تتسم بالسذاجة وتسطيح الفكر ، كأن يُسأل الضيف أسئلة ويُشترط عليه ألا يجيب ب " آه " ! أو تتعلق بمسائل شخصية بحتة من زواج وطلاق وهجر مما نعده سمة ل " الصحافة الصفراء " ، لكنها تذاع يوميا على شاشة التلفزيون الحكومى ، وأسأل : ما علاقة شهر الصوم والعبادة والقرآن بهذا ؟

– مسلسل لا يظهر أحد أبطاله كل ليلة إلا وفى يده كأس من الخمر ، وآخر ، عندما يتأزم به المواقف يهرع إلى " خمارة " ليسكر ، ولكن لا يدور بخلد أحد أن اشتداد تأزم المواقف ممكن أن يدفع إنسانا إلى قراءة قرآن أو الصلاة ، أي السلوكين أقرب إلى شهر رمضان ؟ ومسلسلات أخرى تعج بالرقص الفردى والثنائى والجماعى ، بأجسام شبه عارية !

– كان الراحل بيرم التونسى قد ابتكر ، مع الإذاعية القديرة آمال فهمى ، فكرة " فوازير " أشبه بالألغاز العقلية التى تنشط الفكر ، فإذا بها تنقلب على يد التلفزيون إلى تبلوهات

راقصة مصحوبة بموسيقى صاخبة ، لا أدرى : ما علاقة هذا بشهر القرآن والصوم والعبادة؟

– برامج مسابقات ، معظم أسئلتها تدور حول " معلومات " تتعلق بأسماء ممثلين وممثلات ومخرجين وأفلام ، تُوجه إلى عاملين بالسينما والتلفزيون (!!) ، فهل هذا هو مستوى " الثقافة الفنية " ؟

– كيف يمكن أن يزيف موقف تمثيلى للإيقاع بالناس لنضحك عليهم ، وما أحد منا ، لو تعرض لنفس الموقف ، إلا ولابد أن يسلك نفس السلوك ؟ كيف نخلط بين " المواقف الطريفة " ، وبين " التمثيل " على الناس للإيقاع بهم حتى يضحك عليهم غيرهم ، وعلى الملأ ، ونكرر : ما علاقة هذا بشهرالقرآن والصوم؟

– لماذا لا تذاع أى دراما دينية إلا قبيل الفجر ، وتترك أوقات الذروة فى المشاهدة لهذه البرامج الهشة التافهة السانجة ؟ أليس من حق أطفالنا أن نبث لديهم الوعى التاريخى الدينى من خلال دراما تلفزيونية ؟ وكيف نحقق هذا إذا كانت مواعيدها لا تجىء إلا بعد أن يخلدوا إلى النوم ؟

– ولماذا تتوقف برامج جادة ورفيعة مثل : حوار مع الكبار ، أمسية ثقافية ، دعوة للفطر ، فى رمضان؟

إن الإسلام يقر بحاجة الإنسان إلى " الترفيه "، ولكنه يأبى على إنسانه " الإسفاف " !

---

* صوت الأزهر ، ١٩٩٩/١٢/٣١

سموم التخلف !

ليست المسألة هى مجرد التعلم والحصول على شهادة مهما علت ، بحيث يتصور البعض أن من لم يتعلموا هم الذين يتخلفون فى تفكيرهم فقط بينما من تعلموا ودخلوا كليات علمية أو تطبيقية هم الذين يفكرون بطريقة علمية ، فالمسألة فى جوهرها - فيما نتصور - هى فى مدى القدرة على التحسب لما يمكن أن يحدث . صحيح أن التعليم مفروض فيه أن ينشىء المتعلمين على ذلك ، لكن التعليم نفسه يمكن أن يكون متخلفا عندما يتركز فى جوهره على عمليات " الخزن " للمعلومات من غير أن تلتحم بمشكلات وقضايا الإنسان والمجتمع ، وتتحول إلى " طريقة فى التفكير " و" منهج عقلى علمى " !

ولعل مصداق هذا يمكن أن تلمسه فى سلوك بعض خريجى كليات علمية وعملية ، لكنهم يتخلفون فى نهج حياتهم ، إذ لا مانع عندهم فى الإيمان ببعض الخرافات والسلوك وفقا لها!

العقل المتخلف يعيش غالبا حياة المفاجأة ، فالمطر الغزير " يفاجؤه " ، والرياح العاصفة ، تجىء على حين غرة ، وشح الطعام ، أمر لم يكن متصورا ... وهكذا ، وهذا يفصح لك عن أى عقل تصدر لك تلك التصريحات عندما تبدأ الشكوى من أن الاتصال التليفونى ، مثلا ، عاد ليكون أمرا صعبا ، حيث كثيرا ما تسمع الرد المسجل : " جميع الخطوط مشغولة ، اتصل مرة أخرى فى وقت لاحق " ، ويكون الرد الرسمى ، أن كثافة استخدام التليفوناتَ قد فاقت حدود المتوقع !

وتسعد ، مثلى ، عندما يعلن عن افتتاح امتداد كوبرى أكتوبر الجديد ، مؤذنا بانتهاء المعاناة فى المرور ، فإذا بك تجد أن المسألة قد تفاقمت ، وما أن تصل إلى منطقة غمرة حتى يمكن لك أن " تغفو " بعض الوقت ، إلى أن يجىء الفرج وتواصل السيارات مسيرتها ، ثم إذا بك تسمع المسئولين ، يقولون بأن عدد المطالع قد فاق عدد المنازل ، فلابد أن يحدث اختناق ! وتضرب كفا على كف وتتساءل : هل المسألة لا تمتد إلى حسن " التحسب " والتخطيط لعدة احتمالات والاستعداد لمواجهة كل منها ؟

أرأيت إلى الأداء العسكرى عندنا الذى كان فى حروب ٤٨، ٥٦ ، ٦٧ ؟ لقد كنا دائما " نُفاجأ " ، وتكون النتيجة : هزيمة مخزية !

ثم أرأيت كيف كان الأداء العسكرى لجيشنا فى حرب ٧٣ ؟ كنا نحن الذين فاجأنا العدو ، فكان انتصار مدو احتل مكانة مرموقة فى التاريخ العسكرى العالمى ، فلما تحول تفكيرنا السياسى بعد أيام من الانتصار العسكرى إلى أن يكون مجرد رد لفعل الآخر، بدأت حلاوة الانتصار تقل ، ليكسب من لم ينتصر أكثر مما كسب من انتصر !!

لكن العقل العلمى ينهج دائما ، وفى كل الأحوال ، نهجا مختلفا ! إنه يفرض فروضا ، ويتساءل : لو صح الفرض الأول تكون النتيجة كذا وكذا ، ولو صح الفرض الثانى تكون النتيجة كيت وكيت ... وهكذا مما نترجمه إلى مجموعة من الاحتمالات المتوقعة ، ويكون لكل احتمال ترتيب وتجهيزات واستعدادات ، لأن عناصر موقف الآخر ، أو المستقبل قد لا تكون معروفة بدرجة ١٠٠٪ ، وهناك احتمالات التغير ، واحتمالات ظهور ما لم يكن معلوما ، والجمود على احتمال واحد تخلف مؤكد ، لأن واقع الأمر قلما يثبت على احتمال واحد ، فإذا وقع غيره ، وهو الغالب ، كانت المفاجأة وكانت " اللخبطة " ، أو كما يعبر المثل الشعبى : غرق فى شبر ميه " ، ما دام قد ترك جسم الأمة نهبا لسموم التخلف !!.

والعقل العلمى هو الأقرب إلى نهج الإيمان بالله عز وجل ، على عكس ما يتصور البعض ، ذلك لأن الله جلت قدرته قد سير مخلوقاته وفق نواميس وسنن لا تتبدل ولا تتخلف ، يقول عز من قال : " لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون " يس / ٤٠ ، ويقول : " سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا " انفتح /٢٣ ، ويقول : " وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار " ص / ٢٧ ، والعقل العلمى يقوم بالدرجة الأولى على الاعتقاد بأن هناك قوانين تحكم الظواهر الكونية والاجتماعية ، ومن ثم تكون وظيفة العلماء : الكشف عن هذه القوانين ، فكأن العالم كلما كشف عن قانون كلما عرف الله أكثر ، ومن ثم كلما استطاع أن يستثمر هذا القانون فى تطبيق يطور به حياة الأمة ،كلما تحقق الهدف المشار إليه فى آيات كثيرة ألا وهو " تسخير " ما خلقه الله عز وجل لمنفعة الإنسان فردا وجماعة .

---

* صوت الأزهر ، ١٩٩٩/١٢/١٠

التاريخ الذى لا نراه !

على الرغم من مرور أكثر من سبع وثلاثين عاما من ممارستى للتدريس الجامعى ، فما زلت حتى الآن أحتاج بعض الوقت قبل كل محاضرة كى " أُعد " لها مادتها العلمية ، التى تختلف من عام إلى عام ، وخاصة فى الدراسات العليا . ولا أدرى ما الذى حدث لى منذ أسابيع قليلة حيث داهمنى يوم اللقاء دون أن " أعُد " المحاضرة لطلابى ! وكان على أن أذهب قبلها إلى اجتماع لمجلس كبير وهام ، وأنا مشغول الفكر بما اعتبرته " مأزقا " بالنسبة لى .

جاء موقعى بجوار صحفى كبير ، وقبل بدء الجلسة ، بدأنا نتجانب أطراف الحديث ، وكان كله يتعلق بما حدث من " تغيير " على الساحة المحلية ، ثم إذا بالرجل يتدفق بفيضان من المعلومات التى كانت بالنسبة لمثلى ، ممن يقفون على الرصيف السياسى مذهلة حقا ، مؤسفة فعلا ! هى معلومات وأخبار لا أستطيع حتى أن أضرب أمثلة لها ، على الرغم من أنها هى التى تفسر الكثير مما حدث ، وكان واضحا أنها ليست من قبيل الإشاعات ، فقامة الرجل ، وسنه الكبير لا يسمحان بمثل هذا ، فضلا عن عدم وجود دافع ، فالحديث كان غير مرتب ، وعفوى ، وقلت فى نفسى : مساكين هؤلاء الصحفيين حقا ، إنهم ينشرون ما لا يزيد عن عُشر ما يعلمون !

أثناء عودتى إلى الكلية لمعت فى ذهنى الفكرة الأساسية التى " حلت " المأزق الذى كنت فيه من جراء عدم الإعداد للمحاضرة . لقد كان المقرر يتناول التأريخ للتربية ، وعادة ما تكون المحاضرة الأولى متعلقة ببعض المبادىء والتوجهات الأساسية فى دراسة التاريخ على وجه العموم ، فلماذا لا يكون موضوعنا الأول هو : مدى مصداقية ما بين أيدينا من " تاريخ " فى تصوير وتفسير ما حدث من وقائع وأحوال ؟!

إن أهم ما أصبحنا نركز عليه فى وقتنا الراهن هو أن التاريخ ليس عملية سرد لأحداث ووقائع ، وإنما قيمته الحقيقية هى فيما نستطيعه من بصر وتحليل " للأسباب " و " العلل " التى تقف وراء ما حدث وما يحدث ، ذلك أن هذا هو المعنى الحقيقى لمهمة " التفسير " ، التى هى أهم ملمح يمكن أن يميز ما نكتبه فى التاريخ ، وهل هو " علمى " أم مجرد " حكى

" ودردشة تحكمها العشوائية الفكرية والأهواء الشخصية ؟. وإذا كانت هذه المعلومات التى أسمعنى إياها صحفينا الكبير قد فسرت لى بعض ما حدث تفسيرا بدا لى مقنعا ، وحلت لى بعض ألغاز لم أكن فاهما لها ، ثم إذا كان مجتمعنا يضع الكثير من الخطوط الحمراء أمام ما يمكن أن يتم نشره ، فكيف لمن سوف يأتى فيما بعد ليؤرخ للفترة التى نعيشها الآن ؟! لن يجد أمامه إلا ما هو منشور ، وما هو منشور ، فى كثير من الأحيان لا يبلغ عُشر (أو أقل من هذا القدر أو أكثر) الأسباب الحقيقية ، فكأن ما سوف يُكتب من تاريخ هو ما " يُراد " أن يُكتب ، شئنا هذا أم أبينا !

لقد ذكرنى هذا بمقولة لأحد فلاسفة التاريخ الماضين قال فيها أن ليس كل ما حدث رآه أوعلم به أحد ، وليس كل من رأى حدثا قد لاحظ كل ما يتعلق به ، وليس كل ما رآه قد تذكره ، وليس كل ما تذكره أمكنه أن يرويه ، وليس كل ما أمكنه أن يرويه قد حُفظ فى سجلات ، وليس كل ما حُفظ فى سجلات أفلت من الاندثار والتلف ، وليس كل ما أمن من الاندثار والتلف قد وصل إلينا بالفعل ! فيا ولاه منا ونحن ندعى لأنفسنا الحكمة والمعرفة بالتاريخ !!

• صوت الأزهر ، ١٩٩٩/١١/١٩

ألقـــــاب ٠٠!

من الظواهر الثقافيـة التـى يمكـن للمـرء أن يلاحظهـا ، هـذا الغرام العجيب فـى الثقافـة العربيـة عمومـا والثقافـة المصريـة خصوصـا بالألقـاب ، وأقدم لقب يمكـن أن تعيه ذاكـرة التاريخ ما وُصف به الملك مينا فى التاريخ المصـرى القديم بأنـه موحـد القطرين وصـاحب التاجين إشارة إلى ذلك التغيير الجوهرى الذى تم على يديه عندما وحد بين الصعيد والوجـه البحرى حيث كان كل منـهما وحدة سياسية قائمة بذاتها ٠

وهنا نجد أن ما أُضفى على الملك الفرعونى لقب يتفق مع واقع الحال٠

ونفس الشىء عندما بُدىء فى تسمية الخليفة عمر بـن الخطـاب ب " أمـير المؤمنيـن " ، فهو بالفعل كان مستحقا مثل هذا اللقب ، لا بحكم ما عُرف عنــه مـن استقامة وعدل وحـزم فحسب ، وإنما لأن الجمهرة الكبرى من المحكومين كـانوا بـالفعل " مؤمنيـن " ، بحكم قـرب الفترة من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، من حيث التقوى والنقاء والطهر والإيمان ، وإن كان هذا لا يعنى أن المجتمع العربى حتى فى ذلك الوقت لم يعـرف مـن هـم غير ذلـك ، وإنما نتحدث بحكم " الغالبية " ٠

وربما كان هذا الميل للمناداة للشخص ومخاطبته بلقب غـير اسـمه الصريـح إنمـا يرجـع لتعود العرب ألا ينادوا الشخص باسمه مباشـرة ، ومـن هنـا فقد عُـرف عنـهم التحـدث عن الأشخاص بكُنيتهم ، وأشـهر مـا يعرف بهذا ، المناداة نسبة إلى الابن الأكبر فيقولون : يا أبـا حمزة ، ويا أبا عبد الله ٠٠ وهكذا ، وتركز هذا بصفة خاصة بالنسبة للنسـاء ، إذ لـم يكـن معتادا أن تُنادى المرأة باسمها فنقول " فاطمة ، زينب ، خديجة ٠٠ وهكـذا ، وإنمـا : يـا أم عبد الرحمن ، ويا أم محمد ٠٠

وأكثر مجالات الحياة استخداما للألقاب وبإسراف واضح هو مجال الفن ، حيث يقـوم إلـى حد كبير على " الدعاية " والإعلان ، تماما مثلما نرى إعلانـا عن مسـحوق للغسـيل ، فلابـد وأن يتفنن المعلن ليؤكد للزبـائن أنـه كـذا وكـذا ، من الصفـات التـى تشـير إلـى علـو شـأنه وارتفاع قيمته الوظيفية ٠

هنا انفتح الباب على مصراعيه للمبالغة والإسراف وفوضى الألقاب ، وإن كان أقدم ما نذكره فى هذا الشأن لم يكن ينطبق عليه هذا ، فكثير منا يذكر أن اسم محمد عبد الوهاب كان يقرن دائما بأنه " مطرب الملوك والأمراء " ، وتلك حقيقة معروفة ، فلم يكن عبد الوهاب مطربا " شعبيا " بمعنى أن يغشى المناسبات والتجمعات الشعبية ليغنى فيها ، ولا نذكر له أغنية مما يمكن أن يدخل فى باب الغناء الشعبى ، وهو الأمر النقيض تماما لما كان عليه سيد درويش الذى كان يغنى للشيالين والخبازين وغيرهما من طوائف الشعب العاملة ، أما عبد الوهاب فقد كان يغشى القصور والفيلات والعزب ، ليغنى بالفعل لعدد من الملوك ، فى الداخل ، أو ملوك الخارج ، وخاصة عندما كانوا يجيئون لزيارة مصر .

ولذلك فمما لا يذكره الناس أنه غنى أغنية باسم " التاجين " عندما جاء الملك عبد العزيز آل سعود لزيارة مصر فى عهد الملك فاروق عام ١٩٤٦ ، قاصدا بذلك التاج الملكى السعودى والتاج الملكى المصرى . أما الأغنية الثانية فكانت بمناسبة زيارة الملك سعود لمصر إبان احتدام ما عرف بأزمة مارس ١٩٥٤ ، وإن كنت لا أذكر مع الأسف اسم الأغنية ، غير عبارة واحدة كان يقول فيها : إن يوما أهل فيه سعود .. " ! وكان المتخصص فى نظم مثل هذه الأغانى له هو الشاعر الراحل " صالح جودت " ، فهو كان من المغرمين بباب المديح ، وهو باب شهير فى الشعر العربى ، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بحكام وملوك وأمراء ، فصالح جودت هو أيضا الذى نظم أنشودة الفن ، وما ماثلها من أغنيات ليؤكد على عظمة " الفاروق " ملك مصر السابق !!

وكان للمطربة الشهيرة منيرة المهدية لقبها المشهور وهو " سلطانة الطرب " ، وهو نفس الاسم الذى خرج به فيلم سينمائى عنها ، على يد حسن الإمام ، فقد كانت حياتها فرصة لا تعوض لهذا المخرج أن يعزف على الأوتار التى كان يعشقها ، من حيث الرقص والليالى الحمراء ، والأغانى ، وخاصة التى كانت تبعث على الطرب كما شاع بالنسبة لأغانى الماضى ، وما كان يخفيه هذا العالم - عادة عند الإمام - من قصص ومآس إنسانية تجعل المشاهدين يزرفون الدمع شفقة على الراقصات والمطربات والغوانى !

أما أم كلثوم فهى صاحبة اللقب الشهير " كوكب الشرق " ، وهو لقب كانت تستحقه بجدارة بالفعل ، ولعلنا نذكر فترة حكم عبد الناصر حيث كانت هناك خصومة شديدة وانقساما واضحا فى العالم العربى بين ما كان يسمى بالنظم الثورية والنظم الرجعية ، فضلا

عن الحملات الإعلامية الضارية ، والتى تحولت إلى ساخنة بين مصر والسعودية على أرض اليمن ، ففى هذه الفترة ما أن تقف أم كلثوم لتشدو بأغانيها حتى تتوقف مؤشرات جميع أجهزة الراديو من المحيط إلى الخليج على محطة مصر لتسمع أم كلثوم ، وأصبح مشهورا أيامها أن أم كلثوم بغنائها هى الشأن العربى الوحيد الذى نرى فيه العرب على قلب رجل واحد فى وحدة عجيبة !!

وعُرف عبد الحليم حافظ بلقب " العندليب الأسمر " ، أما يوسف وهبى ، فقد عرف بلقب " عميد المسرح العربى " ، وفاتن حمامة بأنها " سيدة الشاشة العربية " .. ثم إذا بطوفان من الألقاب ، وخاصة بين الممثلات ، فهذه " نجمة الجماهير " ، وتلك نجمة السينما " أو " نجمة التمثيل " .. إلخ

ولأن فريد شوقى كان فى فترة من فترات حياته الفنية يقوم بتمثيل أدوار الفتوة الذى يقف فى صف الغلابة والفقراء ، وينتهى دائما الأمر له بالنصر، أصبح الكم الأكبر من جمهور مشاهدة أفلامه هو من هؤلاء الناس ، الذين كانوا - فى زمن مضى - يرتادون الدرجة الثالثة فى دور العرض فى المناطق الشعبية ، عُرف الرجل بلقب " ملك الترسو " ، فلما أن انتقل إلى طور آخر من أطوار فنه التمثيلى بحكم السن ، استمر اللقب ، ولكن على أساس أنه " الملك " !!

أما عادل إمام الذى أصبح يتربع على عرش الكوميديا ، على الرغم من تحفظ البعض الآن على ذلك ، فإن البعض انتهز فرصة النجاح المعتاد لمسرحياته ليكسبه لقبا من خلالها ، فما أن عرُضت مسرحية باسم (الزعيم) حتى أُستخدم هذا اللقب وصفا له ، بينما كانت له مسرحية أخرى سابقة باسم (الواد سيد الشغال) ، يمكن أن يستخدمه الناقدون لعادل إمام !!

وكان مجال الأدب أقل استخداما للألقاب ، فإذا ما استخدمت كان ذلك بمناسبة اجتمع عليها المتخصصون ، مثلما رأينا فى " تأمير " الشاعر أحمد شوقى " أميرا للشعراء " ، وأصبح بالتالى هذا لقبا علميا صادقا .

وعندما عزل اسماعيل صدقى فى وزارة عام ١٩٣٠ طه حسين من عمادة كلية الآداب ، لرفضه أن يرأس تحرير جريدة كان رئيس الوزارة يعد لإصدارها ، التف ألوف الطلاب وغيرهم حول طه حسين يهتفون له ، ورأوا أن " يعمدوه " عمادة علمية شعبية ، فهتفوا بأنه " عميد الأدب العربى " أفضل من أن يكون عميدا لكلية الآداب بقرار من الحكومة !

ولأن المجال الفكرى لم يصب بهذه الحمى التى أصيب بها مجال الفن لم نجد كبار الأدباء والمفكرين يحفلون بهذا ، حيث لم نجد ألقابا للدكتور هيكل ، والعقاد ، وتوفيق الحكيم ، والرافعى ، وغيرهم ، باستثناء أحمد لطفى السيد الذى لقب " بأستاذ الجيل " ، وشكيب أرسلان الذى لقب ب " أمير البيان " ، والشاعر خليل مطران الذى لقب بشاعر القطرين ، تماما كما كانت المطربة فتحية أحمد تلق ب " مطربة القطرين " !!

إن هذا يكشف لنا أن إحدى السمات البارزة فى ثقافتنا العربية عامة والمصرية خاصة هى هذا الغرام الواضح بالألقاب منذ زمن بعيد ، فالمستقرئ لتاريخ مصر القديمة سوف يستطيع أن يلمس هذا بوضوح ، وأشهر هذه الألقاب ما كان يطلق على " مينا " من أنه " موحد القطرين " . وفى العصور الإسلامية نجد بعض الدول تختص بفئة معينة من الألقاب ، ففى الدولة الفاطمية ، نجد " العزيز بالله " ، و " المعز لدين الله " و " الحاكم بأمر الله " ، وفى الدولة الأيوبية ، نجد صلاح الدين الأيوبى يلقب بالملك الناصر ، وغيره بـ" الكامل " .. وهكذا .أما فى العصر الحديث فسوف نجد الحاكم هو الذى يتسأثر بالكم الأكبر من الأكبر ، عددا وأنواعا ، فهو " ولى النعم " . وعندما وُلد للملك السابق فؤاد " الأول " ابنه فاروق ، أطلق عليه لقب " أمير الصعيد " ، وإن كان هذا تقليدا لما يحدث فى بريطانيا من تسمية ولى العهد " بأمير ويلز " ، التى هى أحد أهم الأقاليم التى تتكون منها بريطانيا .

كذلك فإن دراسة ما كان من هذا الأمر فى زمن الدولة العثمانية تنبؤنا بأن بعض الألقاب قد تحولت فى الدولة ، والبلدان التى تبعتها ، وفى مقدمتها مصر ، إلى مراتب رسمية كان من المفروض أن تمنح كامتياز خاص لمن أنجز عملا فريدا خدمة للدولة ، أو كسمة تقترن ببعض المواقع ، ثم إذا بها ، مع توالى السنين ، وفساد الذمم تُشترى بالمال ، وخاصة لقبا " باشا " وبك " . فلما جاءت ثورة يوليو ألغت هذه الألقاب ، وما رافقها من ألقاب أخرى مثل : " حضرة صاحب المقام الرفيع " الذى كان يمنح لبعض رؤساء الوزراء فقط ، مثل

مصطفى النحاس وعلى ماهر وحسين سرى ، و" حضرة صاحب الدولة " كان شائعا لكل رؤساء الوزراء ، أما الوزير فلقب بحضرة صاحب المعالى.

وعلى الرغم من إلغاء الثورة للألقاب ، لكن كان هناك حرص واضح وملموس ، عندما يتوفى واحد ممن كانوا يحملون هذين اللقبين " بك " و " باشا " أن ينشر نعيه مقرونا باللقب ، وإن وضع بين قوسين وكأن هذا سوف يميزه بين الأموات ، فيفردون له موقعا أكثر فخامة تليق بمقامه الكبير فى الدنيا . واحتفظ البعض من حملة الألقاب السابقين بنفس اللقب (وديا) فى المعاملات الشخصية ، وأصبح مألوفا - مثلا - الآن عندما يتحدث أحد فى حزب الوفد عن (الباشا) أن المعنى به هو فؤاد سراج الدين .وبالنسبة للفظ " بيه " - بك - فإننا نجد أنه قد عاد إلى الانتشار بعد سنوات قليلة من الإلغاء ، يُخاطب به كل " كبير " فى المنصب ، عُرفا ، وعادة ، حتى أصبح - مع الأيام - من الصعب أن تتحدث عن أحد الأشخاص المهمين ، وخاصة فى الجهاز الرسمي دون أن تقرنه بهذا اللقب ، ولا أدرى لم شاع هذا اللقب بالذات ولم يشع لقب " باشا " مع أن الثانى هذا هو الأعلى مقاما ورتبة ؟

ومع ذلك فإن لقب باشا كان يُستخدم ، لكن فى مجال آخر غير مجالات التفخيم والتقدير .. إنه مجال المعاكسات ، ذلك الداء الوبيل الذى نراه فى بعض منحرفى السلوك ، فما أن يرى واحد من هؤلاء امرأة أو فتاة على قدر من الجاذبية أو الجمال حتى يناديها صائحا " يا باشا " !! ثم إذا بهذا اللقب يلتصق بكبار رجال الشرطة ، وخاصة اللواءات ، وربما - تجاوزا - العمداء ، حتى أصبح معتادا أن تقول " سعادة الباشا " ليفهم السامع أنك تقصد ضابطا كبيرا فى الشرطة . ثم إذا به يمتد إلى القوات المسلحة ، ولا يقف عند هذا الحد ، بل يعود للاستخدام فى القطاع المدنى بالنسبة لأصحاب المواقع العالية رسميا ، ويختفى تماما من مجال المعاكسات للنساء !

وإذا كان من الشائع فى مصر أن لقب " شيخ " يقترن بعالم الدين المسلم ، إلا أن التَراث الإسلامى يبين لنا أنه كان كثيرا ما يطلق ليرادف لقب " المعلم " ، أو على شخص يحتل موقعا رفيعا ، أو على كبير جماعة ، ثم أصبح من المعروف أن يستخدم فى مصر فى نطاق نظام الطوائف الحرفية حيث كان يطلق على رئيس الطائفة لقب " الشيخ "، فأصبحنا نرى : شيخ الحلاقين ، وشيخ النحاسين ، وشيخ المغربلين .. وهكذا ، ثم إذا بنا اليوم نستخدمه لنعنى به شخصا بارزا فى مجاله العلمى بصفة خاصة ، كما كنا نقول - مثلا - عن الدكتور

سليمان حزين رحمه الله أنه شيخ الجغرافيين ، أو عن كبير فى مجال الهندسة المعمارية بأنه شيخ المعماريين .

ولقب الشيخ فى مجال العلوم المختلفة يتميز بأنه لا يتأتى عن طريق رسمى ، مما يبعد عنه شبهة " المسايرة " فى القول والفعل حتى تتم الحظوة ويتم الرضا والقبول من السلطة القائمة ، وبالتالى يصبح لأهل الديار العلمية والفكرية نفسها القول الفصل فى إسباغه على هذا وذاك من العلماء والمفكرين . وإذا كانت تلك ميزة على درجة كبيرة من الأهمية ، إلا أننا خبراء ، فيما يبدو ، فى تحويل الاتجاهات الإيجابية ، والمبادئ الرفيعة بقدرة قادر إلى وسيلة من وسائل النفاق الاجتماعى ، خاصة وأن ليست هناك معايير معينة يمكن من خلالها إسباغ اللقب ، ففى كثير من الأحيان تخضع المسألة إلى تقدير شخصى ، فقد تجد " معقولية " عندما يجىء اسم القارىء الشهير محمد رفعت بأنه " قيثارة السماء "، تعبيرا عن هذا السحر العجيب الذى ينبعث من صوت الرجل فإذا بفيضان خشوع وتقوى يملأ قلبك حال سماعه ، لكن الجمهرة الكبرى صارت تحصل على هذا اللقب أو ذاك بغير جدارة أو استحقاق !

ومن هنا فقد نجد بعضا يخصون هذا أو ذاك بلقب شيخ المجال لأسباب مصلحية ، وخاصة إذا تيقنوا بأن الباب مفتوح بين من يسبغون عليه اللقب وبين مسارات المنفعة وسياط المضرة .وعندما يجد هذا أو ذاك أن المجموعات الماهرة فى دق الطبول قد استطاعت أن تملأ الدنيا باسمه مقرونا باللقب ، فإنه يصدق هذا الذى شاع ويتصرف على أنه حقيقة ، وأنه بالتالى قد أصبح فرعون المجال بلا منازع ، وينكشف أمره من خلال سلوكه إزاء الآخرين عندما لا يطيق كلمة نقد توجه له وكأنها كفر بالله ، وعندما لا يتصور أبدا إمكان أن يكون هناك فى الطريق من يمكن أن يشارك فى القمة الفكرية أو العلمية ، فهذه القمة ليست مثل المناصب الكبرى فى الحكومة أو القطاع الخاص ، لا تتسع إلا لواحد ، وإنما هى قمة متسعة ، كما كنا نرى - على سبيل المثال - القمة الفكرية تتسع لطه حسين وأحمد لطفى السيد والعقاد وهيكل وغيرهم ، وفى الفن اتسعت القمة لمحمد عبد الوهاب وأم كلثوم والسنباطى وزكريا أحمد والقصبجى .. وهكذا .

ولم تقتصر الفوضى على الألقاب فى المجال العلمى والفكرى وحده ، بل ، وفقا لنظرية الأوانى المستطرقة ، وجدناها فى مجالات شتى ، وعلى سبيل المثال فعندما منح الرئيس

الراحل السادات لقبى " لواء " و" دكتور " على الفنان محمد عبد الوهاب إذا بوسائل الإعلام تحرص على أن تسبق اسمه بهما أو بلقب الدكتور بالذات ، مع أن هذا اللقب لا يضيف شيئا للرجل ، فيكفى أن نقول " محمد عبد الوهاب " لنستدعى إلى الوجدان والعقل الكثير من مظاهر عبقريته ٠كما يحرص البعض على أن يسبقوا اسم نجيب محفوظ ب " الأديب العالمى " باعتباره حائزا على جائزة نوبل ، مع أن مجرد اسم الرجل يحمل كل المعانى التى يستحقها ٠ وليتأمل القارئ جيدا أسماء كثير من قمم الفكر والفن على مستوى العالم ، فسوف يجد أن أسماءهم تكتب بلا ألقاب حتى لقد دهشت فى بدء دراستى للفلسفة عندما عرفت أن فيلسوف ألمانيا العظيم " هيجل " قد حصل على الدكتوراه لأننى ألفت أن أجد اسمه بدونها ، وهكذا قل عن " رسل " و " سارتر " و " ديوى " وغيرهم ٠

• الميدان ، ٧، ١٩٩٩/١٢/١٤

٠٠٠ومن قبل قاسم أمين !

لماذا اتخذ من عام ١٨٩٩ بداية لتحرير المرأة كما أشارت احتفالية المجلس الأعلى للثقافة الأخيرة ؟

التفسير المعلن أن هذا هو تاريخ صدور كتاب قاسم أمين عن تحرير المرأة ، وهذا أمر أثار دهشتى حقا ، ولن أدخل فى جدل متسائلا : تحريرها مم ؟ وهل يمكن أن تكون هناك بداية من نقطة الصفر فى التطور الاجتماعى ؟ إلى غير هذا وذاك من تساؤلات ، لكن مبعث دهشتى أننى لا أعتقد أن أحدا من المسئولين عن الاحتفالية ليس لديه علم بكتاب صدر قبل كتاب قاسم أمين بنحو ست وعشرين عاما هو كتاب " المرشد الأمين للبنات والبنين " لرائد النهضة العربية الحديثة ، رفاعة الطهطاوى حيث صدر الكتاب عام ١٨٧٣ وهو نفس عام وفاة مفكرنا الرائد ٠

صحيح أن الكتاب لم يكن خاصا بالمرأة وحدها كما هو ظاهر من العنوان ، لكن هذا الاشتراك فى الموضوع بين البنين والبنات كان فرصة للمقارنة وهى فى معظم الأحوال مقارنة منصفة إلى حد كبير للمرأة ٠ ولابد ونحن نقيس قيمة العمل الفكرى الذى يعتبر علامة على الطريق أن نضع فى الاعتبار مدى ما كان يمثله وقت ظهوره من نقلة حضارية فعلية ٠ صحيح أن الفارق الزمنى هنا هو ست وعشرون عاما ، لكنها فى هذه الفترة بالذات تعتبر ثرية إلى أقصى ما يمكن أن يكون الثراء الثقافى المتاح فى ذلك الوقت ٠٠

كان الاتصال بالثقافة الغربية قد تزايد ، فقد كانت البلاد قد أُحتلت من قبل الإنجليز كما هو معروف ، وكان عدد المدارس الأجنبية قد بدأ يتكاثر بشكل ملحوظ ، فضلا عن تزايد الصحف ، وحركة نشطة فى الغناء والمسرح ، وظهور كوكبة من كبار المفكرين على رأسهم أحمد لطفى السيد ومحمد عبده ، ولا ننسى هذا الصالون الشهير الذى كانت تقيمه نازلى فاضل ، وكانت تلك ظاهرة فريدة وجديدة تماما على المجتمع المصرى ، وكان عدد غير قليل من أعضاء البعثات قد بدأت آثاره العلمية والفكرية تعرف طريقها إلى واقع الثقافة المصرية ، وأخيرا فقد كانت هناك هذه الهجرة المعروفة لعدد من مفكرى وأدباء وصحفيى وفنانى " الشام "، بدأوا يتوافدون على مصر هربا مما كانوا يلاقونه على أيدى العثمانيين ،

وكل هذا لم يكن متوافرا فى المناخ الذى عاشه الطهطاوى مما يعطى كتابه قيمة أكبر ، تماما كما تقارن ضوء شمعة بسيطة ظهرت أمامك وسط ظلام دامس ، بمصباح غاز كبير ظهر فى فترة الغسق الحضارى !!

وحتى لا يكون كلامنا مرسلا ، ربما يكون من الضرورى التوقف قليلا عند بعض ما طرحه الطهطاوى من آراء فى هذا الكتاب التاريخى الخطير ..

فهو بعد أن يشير إلى ما تحمله المرأة من مثيرات للشهوة الحسية مما تنفرد به عن الرجل ، يقول : " فيما عدا هذه الملاذ مثله (أى الرجل) سواء بسواء ، أعضاؤها كأعضائه ، وحاجته كحاجته ، وحواسها الظاهرة والباطنة كحواسه ، وصفاتها كصفاته ، حتى كادت أن تنتظم الأنثى فى سلك الرجال . أوليس أن ناسوت (أى الطبيعة البشرية) الرجل والمرأة فى الخلقة على حد سواء ، وهيكلها مستوفى الترتيب والتنظيم وتناسب الحركات والأعضاء ، ومشابهتها فى الشكل معلومة ، وفى الهيئة مفهومة " . ثم يمضى الطهطاوى إلى ما هو أكثر صراحة ووضوحا فيقول : " فإذا أمعن العاقل التأمل الدقيق فى هيئة الرجل والمرأة ، فى أى وجه كان من الوجوه ، وفى أى نسبة من النسب ، لم يجد إلا فرقا يسيرا يظهر فى الذكورة والأنوثة ، وما يتعلق بهما ...

بل إن الطهطاوى يجد فى المرأة من الصفات رفيعة المستوى ما يفوق ما لدى الرجل ، ويسوق مثالا على ذلك " قوة الصفات العقلية ، وحدة الإحساس والإدراك على وجه قوى قويم " ، فهذا يعطيها براعة فى فهم الرجل فهما غاية فى الدقة ، بينما يفتقد الرجل هذه الميزة ، ومن ثم فهو إزاءها إنما هو موقف التلميذ أمام الأستاذ ، انظر إليه وهو يقول : " فهن أساتيذ الرجال فى هذا المعنى فى المؤانسة والمجانسة المعتاد فى مجامع الأنس والمرور والتأنس البشرى واللياقات الدقيقة هو طوع أذنها ، تفهم جزئياته بأدنى إشارة وأخصر عبارة مما لا يكاد يدركه الرجل إلا بصريح العبارة ..."

وقد يتصور القارىء لأول وهلة أن تفوق المرأة هنا إنما يختص بدنيا العواطف والإمتاع الحسى ، ومفكرنا منتبه لهذا ، فيبادر إلى النفى مؤكدا أن ذكاء المرأة أعمق من هذا وأكثر اتساع مدى ، فها هو يكتب قائلا : " وليس ذكاؤهن مقصورا على أمور المحبة والوداد ، بل

يمتد على إدراك أقصى مراد " ، ولا يكتفى الطهطاوى بذلك بل يروى عددا كبيرا من القصص التراثية المبرهنة على صدق هذه المقولة .

ومن الملفت للنظر أن الطهطاوى عندما يترجم كتابا عن أخلاق الأمم وعاداتها نجده لا يقف موقفا حياديا أمام النص بحيث يقتصر دوره على دور الناقل أو الراوى ، فهو أحيانا ما يطلق ويبين رأيه ، ويهمنا هنا تعليقه على ما رواه الكتاب عن موقف بعض الشعوب من المرأة ، إذ نراه يقول ، فيما ننقله عن الأعمال الكاملة لمحمد عمارة : أنه " كلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أدبهم وظرافتهم ، فعدم توفية النساء حقوقهن ، فيما ينبغى لهن الحرية فيه ، دليل على الطبيعة المتبربرة .. " !

ولأن قضية التعليم كانت من القضايا الخطيرة بالنسبة للمرأة ، حيث لم تكن بمصر مدرسة للبنات، وقت ظهور الكتاب ، نجد الطهطاوى يوليها اهتمامه ، ومن هنا فلابد أن نتأمل عنوان الفصل الثالث من كتابه حيث نصه : " فى تشريك البنات مع الصبيان فى التعلم والتعليم وكسب العرفان " !! ، ويشرح هذا العنوان على الفور فى أول كلمات وسطور الفصل : " ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا .. " ، وإذا كان للتعليم أثره المعروف بالنسبة للمرأة من حيث توسيع المدارك وزيادة التعقل ، لحسن مشاركة الرجال فى الكلام والرأى ، إلا انه يضيف إلى ذلك نصا على جانب كبير من الأهمية ، وهو أن التعليم للمرأة ، بالإضافة إلى ما سبق " ليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال ، أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال ، على قدر قوتها وطاقتها " .

والطهطاوى لا يقف عند هذا الحد بل يزيده تأكيدا وبيانا بأثر العمل على القضاء على ما تعيشه النساء القعيدات في البيوت من فراغ قاتل يمكن أن يصرفنه فى سوء الأعمال والأقوال ، ولهذا يقول الطهطاوى : " فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل " . وهو لا ينظر إلى فائدة العمل بالنسبة للمرأة على أنه مجرد كسب الرزق ، " فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء .. "

وإذا كان البعض فى ذلك الوقت قد أبدى تخوفه من " مفاسد " تصورهـا يمكـن أن تحـدث من تعلم البنات ، فإن الطهطاوى ينفى ذلـك بشـدة إلـى الحـد الـذى جعلـه يؤكـد : " .. وقـد قضت التجربة فى كثير من البلاد أن نفع تعليم البنات أكثر من ضرره ، بل إنه لا ضرر فيـه " ، ولأن أعداء تعليم المرأة كانوا يستندون إلى سوء فهم لنصوص دينية ، بادر الطهطـاوى إلى تصحيح هذا الفهم أشار إلى أنه كانت هناك نساء فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يعلمن القراءة والكتابة لنساء أخريات ، مثل " الشفاء " ..

هل بالغنا عندما قلنا أن تاريخ تحرير المرأة ينبغى أن يكون قبل عام ١٨٩٩ ؟ لا أظن !!

• الميدان ، ١٦، ١٩٩٩/١١/٢٣

ثقافة ال" تيك أواى " !

منذ سنوات – أرجو أن يعفينى القارىء من تحديدها – ذهبت إلى أحد المطاعم ، وطلبت بعض سندويتشات مما يعده هذا المطعم ، فإذا بالبائع يسألنى : تيك أواى ؟ كانت الكلمة فى تلك الوقت جديدة وغريبة على مسمعى ، فلم أتبين جيدا ما قال ، ومن ثم فقد سألته أن يعيد السؤال ، فلما كرر الكلمة حسبت أنها تختص بنوع آخر غير الذى طلبته ، وأن الرجل لابد أنه لم يسمع جيدا نوع السندويتشات التى طلبتها ، فكررت ما طلبت ، فرد الرجل بأنه سمع ، وبالتالى يسألنى : عايزهم تيك أواى ؟ فانتقلت إلى تفسير آخر ، وهو أن هذه الكلمة لا تختص (بنوع) من السندويتشات بل (بطريقة) صنعها ، مثل المشوى والمسلوق والمحمر ، ولما كنت أخشى أن أجرب الجديد فى هذا الشأن اضطررت أن أرد على الرجل بقولى : عادى ! ونلك فى مقابل ما يقال " دوبل " و " سوبر " .. وما شابه .

ويبدو أن الرجل قد فاض به الكيل ، و " خمن " حالة ما أنا عليه من جهل ، فإذا به يسأل : هل تريد تناولها هنا أم تأخذها معك ؟ فاخترت البديل الثانى ، ورجعت إلى ابنى أروى له المسألة ، فإذا به يضحك من سذاجتى ، ويقول : يا بابا ، تيك أواى ، هى الوجبات الجاهزة السريعة التى تأخذها معك لتتناولها فى الطريق أو فى أى مكان آخر تريده خارج المطعم !

من يومها ، وجدت نفسى ألاحظ ما هو أكثر عمومية ، ذلك أن أكثر المنتجات الحضارية المادية ، غالبا ما تصحب معها نمطا من التفكير يناسبها ، بل كثيرا ما تقترن بها حزمة من القيم والعادات والتقاليد الملائمة ، ومن هنا قال" تيك أواى " ليست مجرد صيغة لتناول الوجبات السريعة ، وإنما أصبحت نمطا لنوعية من الحياة والثقافة الخفيفة السريعة السطحية الرخيصة التى قد تملأ العقل لكنها لا تغذيه جيدا ، لكن منطق من ينتجونها ومن يستهلكونها ، أن هذا مما يتفق وإيقاع العصر الذى ينحو نحو السرعة وكثرة التغير! ويمكن أن نرى صورا لها فى كثير من المجالات الثقافية .

وعلى سبيل المثال ، خذ صحفنا اليومية ، فقد أصبح هناك ما يمكن أن يعتبر قاعدة أو عرفا لدى معظمها ، أن لا مكان فيها للمقالات المطولة ، على أساس أن الصحيفة اليومية تركز على الخبر والصورة والتحقيق ، وتلك المقالات القصيرة السريعة ، أما ما كنا نعرفه

فى صحف زمان من مقالات مطولة لطه حسين والعقاد والمنفلوطى والرافعى وهيكل وسلامة موسى وتوفيق دياب والمازنى وغيرهم ، فقد ولى زمانه ، مع أن هناك صحفا مصرية أصبحت تتسع لمثل هذه المقالات المطولة وتحتل مرتبة أولى فى التوزيع فى العالم العربى ، وكذلك يمكن الإشارة إلى صحف عربية تصدر خارج العالم العربى من حيث استمرارها فى نشر مقالات مطولة .

وكلنا بطبيعة الحال يتذكر الكتب التى كان يتداولها طلاب كليات الحقوق والتجارة من حيث ضخامتها وكثرة عدد الصفحات ، فإنها ، ربما تكون مستمرة فى تضخمها وكثرة عدد صفحاتها إلى الآن ، لكن نادرا ما تجد الطلاب يذاكرون فيها .. إنهم يُرضون الأساتذة بشرائها ، لكن هناك الآن أشكال متعددة لتلخيصها فى عدد قليل للغاية من الصفحات ، وربما فى صورة جداول ، لأن الهدف الآن لم يعد أن " يتعلم " الطالب ، فهذا أمر يستغرق وقتا طويلا ويحتاج جهدا مضاعفا ، بينما منطق ال " تيك أواى " يشير إلى هدف آخر وهو أن الطالب يريد أن " ينجح " ، ويكون ذلك بالتركيز على تلك النقاط التى تعين على الإجابة عن أسئلة الامتحان ، ولذلك تجد ارتفاعا فى الدرجات التى يحصل عليها الطلاب فى الامتحانات ، وفى نفس الوقت انخفاضا فى قدرتهم على التعامل بكفاءة ونجاح مع مجالات العمل والحياة التى من المفروض أن الدراسة قد أهلتهم له .

وانظر إلى نوعية الأغانى الشائعة الآن والتى يسمونها أغانى " شبابية " والتى صدق من عدل هذا الوصف بتسميتها بأنها " هبابية " ، ولما أسأل عن سر الميل إلى هذه النوعية ، أسمع أن أحدا لم يعد بإمكانه الآن أن يجلس ليسمع أم كلثوم لمدة ساعة أو أكثر تغنى" رباعيات الخيام " أو غيرها ، ولا عبد الوهاب كى يغنى لمدة نصف ساعة " الجندول " ..وهكذا ، لكن هذه الإجابة لا تقنعنى ، ذلك أن هناك كما كبيرا من أغانى " زمان " كانت كذلك قصيرة وسريعة ، ألا وهى أغانى جميع الأفلام منذ أن بدأت الأفلام الغنائية من عشرات السنين ، فأم كلثوم لها : غنى لى شوى شوى ، وحقابله بكره ، وعبد الوهاب له : عمرى ما حانسى يوم الاتنين ، وحتى : جفنه علم الغزل ، وليلى مراد : اضحك كركر ، و دوس عالدنيا ..وكل أغانى شادية ومحمد فوزى وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش السينمائية .. وغير هذا وذاك مئات الأغانى القصيرة السريعة ، فكأن المسألة ليست مجرد السرعة وإنما هبوط المعانى وتسطيح الكلمات وتدنى الألحان .

إن الغريب حقا أن مروجى أشكال ثقافة ال " تيك أواى " إذ يستندون إلى أن هذا مماثل لما يحدث فى الدول الغربية المتقدمة ينسون أنهم فى الوقت الذى يقدمون فيه أغانى الزعيق والدق والتنطيط السريعة القصيرة ، فهم يقدمون أيضا السيمفونيات والأوبرات والباليهات ، وهم فى الوقت الذى يقدمون فيه صحفا خفيفة سريعة إخبارية ، يقدمون مئات إن لم يكن الآلاف من المجلات العلمية الرصينة الحافلة بمختلف صنوف المعرفة المتعمقة الدسمة ، وهم فى الوقت الذى يجددون فيه ويغيرون من ساعة إلى أخرى ، يعنون فى الوقت نفسه بموروثهم الثقافى ، دراسة وفهما ونقدا وتعليما واعتزازا، ولا يفكرون فى أن يهيلوا عليه التراب !

أما أن يستند البعض إلى دعوى السرعة والتغيير والتجديد كى يقدم أشكالا وأنواعا سطحية من الثقافة الرخيصة ، كى تكون هى النموذج الذى يجب أن تتسع مساحته بالتدريج كى تزيح من أمامها أشكال الثقافة المتعمقة الرفيعة الدسمة التى تحتاج وقتا طويلا لإعدادها واستهلاكها ، فهم " تلاميذ " خائبين للحضارة الغربية ، ولا يفهمونها حق الفهم ، وهذا هو الفارق الكبير بينى " الذيلية " الحضارية ، والقدرة على التعامل مع الحضارات الأخرى بمنطق عقلى يقوم على الانتقاء والنقد .

---

* الوفد ، ١٩/١٠/١٩٩٩

عربية أم سيارة ؟

الحوار مع الأطفال فرصة ثرية ممتعة لمثلى ممن يحترفون العمل التربوى ، ويتشغلون بالعلوم التربوية ، خاصة إذا كان الحوار مع حفيد . كان " حسن " الذى تجاوز الثالثة من العمر ببضع شهور ، منشغلا ببعض أمره ، فإذا به يبادر بسؤال وجهه لى يقتضى الإجابة عنه بالإيجاب ، فقلت له : " نعم " ، ولم أنتبه إلى أن " نعم " هذه فى قاموسه اللغوى إنما تعنى الاستجابة لمناداته ، وأن المفروض - حسب ما تعود - أن أرد عليه ب " أيوة " ، ومن هنا فقد أعاد إلقاء السؤال تصورا منه أننى لم أفهم ، حيث أن من استخدامات " نعم " التى خبرها أن تكون بمثابة استفهام : " نعم ؟ " يتطلب تكرار السؤال ، فكان أن أجبته بقولى : " لقد أجبت عليك بالعربية " ! قاصدا بطبيعة الحال العربية الفصحى ، فإذا به يقول : " بابا عنده عربية لكن أنا مش عندى عربية " ، مشيرا إلى أن مدلول العربية عنده هو " السيارة " ، ومن هنا فقد استمرأت التحدث بالفصحى قائلا له:" لا تقل عربية وقل سيارة " ، فإذا به يستغرق فى الضحك ، ويسأل : إنت بتتكلم إيه ؟ وأخذ ينظر إلى بعض الجمل الفصحى التى واصلت استخدامها وكأننى" أنكت " معه بطريقة إسماعيل ياسين فى بعض أفلامه عندما يتكلم "أى كلام" فيضحك الأطفال ، ومن هنا فكلما جاء حسن لزيارتنا طالبنى:كلمنى عربية! ويكاد يستلقى على قفاه ضاحكا فرحا بهذه اللعبة اللفظية الفريدة فى نظره !

إن هذا الموقف إنما يلفت نظرنا إلى حقيقة مؤسفة تتصل بتعليم أطفالنا اللغة القومية ، ألا وهى العربية ، فطوال السنوات التى تسبق الالتحاق بالمدرسة يتعلم بالتقليد والمحاكاة ممن يحيطون به ، وخاصة أبويه وإخوته ، " العربية " فى صورتها العامية ونطمئن نحن إلى أنه قد تعلم لغتنا . لكنه عندما يلتحق بالمدرسة يفاجأ بصورة أخرى هى الفصحى والتى تعتبر بالنسبة إليه لغة ثانية ، بل ونطلب منه أن يقرأ فى بعض الكتب بها بينما هو يحتاج إلى فترة أولية كى يفهم هذه اللغة فى حد ذاتها ، ومن هنا يعانى صعوبة كبيرة فى فهم المحتوى المعرفى للكتب المقررة .

وتبلغ المشكلة ذروتها عندما يلتحق بمدرسة لغات ، فيجد أنه يتعامل مع ثلاث لغات مرة واحدة ، أولاها العربية الشفاهية ، وهى العامية التى يتحدث بها مع زملائه وأسرته ومعلميه ، والثانية العربية المكتوبة ، أى الفصحى ، ومن هنا تكون المسئولية ثقيلة بالنسبة إليه ، دون أن يجد من الكبار تقديرا لحجمها بالنسبة لنموه العقلى والفكرى .

وكم يبلغ بنا الخطأ فى حق ثقافتنا عندما نضع ، من حيث لا ندرى ، اللغات الثلاث فى موقف مقارنة ، متحيزين إلى اللغة الأجنبية ! فأبناؤنا عندما ينطقون ويسمون شيئا باسمه الإنجليزى أو الفرنسى أو الألمانى ، غالبا ما نظهر لهم الفرح والسرور ، وربما نظهر هذا من خلال كلمات تشجيع ، مثل " برافو " ، ونصفق لهم ، لكننا لا نفعل شيئا مثل هذا إذا نطق طفلنا وقال – مثلا – هذه سيارة ، أو هذا هاتف ، إلى غير هذا وذاك من كلمات عربية مما لا وجود لها فى التعامل الحياتى اليومى ، فيقر فى الذهن والوجدان أن المعرفة بالأجنبى مدعاة للفخر والتقدير ، أما المعرفة باللغة القومية ، فيستوى فيها العلم مع الجهل!!

إننى أعلم أننى أسبح ضد التيار لو قلت أن أحد الحلول الجوهرية هى ألا نبدأ سنوات التعليم الأولى بتعليم الطفل لغة أجنبية ، مؤجلين هذا فترة عام أوعامين ، ونخصص هذه الفترة كى نطمئن إلى إمساكه بتلابيب لغته القومية أولا ، فهى " الحبل السرى " الذى يربطه بكافة مصادر الثقافة العربية . وهناك أيضا ضرورة زيادة تعليمه آيات من القرآن الكريم ، باعتباره " المجمع الحقيقى للغة العربية " .أما الحل " الحلم " شبه المستحيل ، فهو أن تشيع الفصحى الصحيحة على ألسن مذيعى ومذيعات الإذاعة والتلفزيون !

---

* الوفد ، ١٨/١/٢٠٠٠

الجهل الثقافى

من الطرائف التى حكاها لى بعض تلاميذى ممن ابتعثوا فى السبعينيات إلى الولايات المتحدة للحصول على درجة الدكتوراه ، أن مجموعة منهم ، دخلت مطعما أمريكيا لتناول الغداء ، بعد يوم أو يومين فقط من وصولهم ، وهم خاليى الوفاض تماما من أية خبرة بالمجتمع الأمريكى وثقافته ، وبعد أن جلسوا وأعد لهم الجرسون المائدة ووضع الشوك والسكاكين ، جاء يسأل عما يريدون تناوله ، فبادر أحدهم ، وهو يعبث بيده بالسكين ، قائلا : I want something to open my self ، وكان صاحبنا يريد ما نسميه " بالمقبلات " ، أى فواتح الشهية ، لكنه فكر أولا بالعربية حيث نقول أننا نريد شيئا " يفتح النفس " ، ثم راح يترجم ترجمة قاموسية حرفية ، دون أن يعلم أن الكلمة لها سياقها الثقافى الذى يمكن أن يعطيها معنى فى ثقافة يختلف عن معنى آخر فى ثقافة أخرى ، ذلك أن الجرسون تعجب وفهم أن الزبون يريد أن ينتحر بهذه العبارة الإنجليزية وإلا فماذا يكون معنى open my self ? ، مما جعله يستدعى الأمن !!

تذكرت هذه الواقعة التى كنت أظن أنها تورات فى قاع الذاكرة ، وسط هذه التفسيرات الأمريكية المضحكة (الخبيثة) للعبارة الشهيرة التى قالها أحد طيارى الطائرة المصرية المنكوبة ، وهى " توكلت على الله " أو :" الأمر لله " ، فهؤلاء قوم يفخرون بامتلاكهم أدق الأجهزة وأكثر ما عرفه العالم من معدات فائقة التكنولوجيا ، تتسم بالدقة والذكاء فى كشف الغامض من الأمور ، وتتبع مسار النملة فى الشقوق والجحور، لكن وا أسفاه ! فهناك أنواع أخرى من القراءة تعجز عنها أدق الأجهزة والمعدات ..

إنها ما نسميه " بروح " الشعوب ، فالشعب المصرى بصفة خاصة معجون بماء التدين عبر آلاف السنين ، حتى هؤلاء الذين يعرفون بإنكار الدين تجدهم يستخدمون فى محصولهم اللغوى كلمات دينية ، فما من أحد إلا ويقول " إن شاء الله " ، و " ربنا يسهل " ، و قل يارب " ، " ربك يفرجها " ، " اسع يا عبد وأنا أسعى وراك " ، " ربك هو المعين " ، وهل لا نلاحظ أن البعض من الإخوة الأقباط يرددون أحيانا " بسم الله الرحمن الرحيم " ؟ .. إلى غير هذا وذاك من عبارات كلها تشير إلى أن " الله " حاضر دائما فى الفكر والعقل والقلب ، وإن كان العمل غير مستقيم . بل إن بعض اللصوص والمرتشين والفاسقين ، فى مواقفهم المشينة ، وبطريقة لا شعورية يستخدمون مثل هذه العبارات ، أفلا نجد بعض من يتفقون

على أمر سرقة ، مثلا ، يقولون لبعضهم البعض " نقرا الفاتحة " !! إعلانا عن اتفاقهم ؟ ونسمع الواعد بالرشوة يقول " إن شاء الله " ، فهل هذا أمر مما يشاؤه الله لنا حقا ؟

إن الشخصية الأمريكية خاصة شخصية نعترف بالطبع بأنها وصلت إلى كذا وكذا مما هو معروف ومشهور ، لكننا لا ينبغى أن ننسى أنها شخصية نبت شعب من الشعوب قصيرة العمر الحضارى ، فلا تجد فى خلاياها هذا الامتداد التاريخى الذى يُكسب الشخصية القومية أبعادا متعددة ، ويسمها بالعمق فى تضاريس مكوناتها ، هى شخصية ينطبق عليها هذا الوصف الشهير " لماركيوز " (الإنسان ذو البعد الواحد) ، ذلك لأنها شخصية " تشيأت " ، بحكم ما أدت إليه ظروف نشأتها من تغييب دائم ومستمر لهذا العالم الضخم العجيب الحافل بما لا يخطر على بال ، وهو عالم " الوجدان " .. عالم العواطف والميول والاتجاهات والقيم . وبغض النظر عن الدوافع المعروفة التى يمكن أن تكون قد حركت الأمريكيين لتفسير كلمات طيارنا الشهيد ، ومع الإقرار باحتمالات مُرجحة لتفسير الحادث ، فقد كان طبيعيا أن يستخدم العقل الأمريكى التفسير الذى استخدمه لكلمات الطيار على أنها علامة على العزم على الانتحار ، بينما نفسرها نحن على أنها علامة على أن الرجل ، وقد أصبح أمام كارثة محققة ، يسلم أمره لله ، الواحد الأحد !

---

* الوفد ، ١٩٩٩/١٢/٧

الوجه المنير للدراما !

مثلما هو الشأن بالنسبة للقمر من حيث وجود وجه مظلم له ، ووجه منير ، فكذلك الفن على وجه العموم ، والدراما التلفزيونية على وجه الخصوص ، وإذا كنا لا نرى الوجه المظلم للقمر ، إلا أن الوجه المظلم للدراما هناك كثيرون يرونه ، ومن هنا تأتى الخطورة .

أقول هذا بمناسبة المسلسل الخاص بأم كلثوم الذى لم يحظ عمل فى تاريخ الدراما فى مصر بتغطية وتقدير عال مثلما حصل عليه هذا العمل ، إلى الدرجة التى أصبح معها المزيد من الحديث عنه محفوف بمخاطر التكرار والإملال ، ومن هنا نريد أن نلفت النظر إلى جوانب بعينها حوله " تتصل بكون كاتب هذه السطور ليس ناقدا فنيا محترفا ، وبالتالى فزاوية الرؤية هى " البعد التربوى والنفسى " .

ففى وسط هذه البلبلة " القيمية " المفزعة حولنا أصبح هناك كثيرون يسخرون ممن يردد الحديث عن بعض القيم العظيمة ، مثل الإتقان ، والجدية ، والأمانة ، والأصالة .. إلخ ، فإذا بمثل هذا العمل الدرامى يعيد لنا الثقة بمثل هذه القيم وما سار على دربها ، فما حظى بما حظى به إلا بفضل ما توافر له من إتقان ، وأمانة ، ودقة ، وموضوعية ، وأصالة ، وكان هذا فى حد ذاته سببا رئيسيا للكثافة العالية فى مشاهدته ، والإعجاب بلا حدود به ، فالكثرة الغالبة من الناس فى شوق بالغ إلى العودة إلى الأصول الراسخات ، وإلى تلك المبادىء والقيم والاتجاهات التى تجعل للحياة معنى جميلا ، وتزيد من الروابط بين عناصر المجتمع ، وتعلى من شأن الريادة ، سواء فى مجال الفن أو الأدب أو العلم أو فى غير هذا وذاك .

وكم كنت أشعر بحسرة بالغة عندما أجد إقبالا مؤسفا من الشباب والصغار على هذا الهراء المسمى " بالأغانى الشبابية " والتى صدق من سماها " الهبابية " ، وفى نفس الوقت انصرافا وجهلا بهذه الأعمال الرائعة لمحمد عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش ومحمد عبد المطلب وليلى مراد وغيرهم ، فإذا بأعداد كبيرة من هذا الجمهور العريض تكتشف هذا الجمال الرائع الذى كاد أن يتوارى فى الظلمات ، ويصرح أحد مسئولى مؤسسة توزيع شرائط أم كلثوم بأن هناك زيادة ملحوظة تصل إلى عشرات الألوف خلال أسابيع قليلة لا تصل إلى أصابع اليد الواحدة ، وعدد منهم غير قليل هم من صغار السن !

ألا يؤكد لنا هذا المسئولية الخطيرة التى يتحملها التلفزيون ، وكيف أن الحس الفنى يُنشأ وفقا لما تتعود عليه الأذن والعين ، إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا ؟ فهذه المساحات العريضة التى تُفسح للذين يرقصون (أو قل : يتنططون) ، ويحركون حواجبهم ، وتتلوى خواصرهم كمن يعانى مغصا ، ويصرخون بأصوات منكرة (وإن أنكرالأصوات لصوت الحمير) بحجة إفساح المجال للجديد ، وللشباب ، فيها إفساد ما بعده إفساد ، وهذا أقوى مبرر لمن يتطرفون ويحكمون " بكفر " هذه الأعمال الرديئة ! وعلى العكس من ذلك ، لو أفسحت مساحات أوسع للفن الراقى ، فسيمفونيات وموسيقى بتهوفن وموزارت وتشايكوفسكى وكورساكوف ، لا أحد يستطيع أن يزعم أنها " قديمة " لا توافق الأذواق الحاضرة لمجرد مرور أعوام طويلة عليها ، بالضبط كما نقول هذا على اللوحات الفنية العالمية الرائعة ، والأعمال الأدبية العبقرية ، والأغانى الرفيعة ... تمر العقود والقرون ، ويظل جمالها ويستمر تأثيرها المبدع .

وأخيرا ، لم لا يحفزنا هذا إلى أن نشمر عن سواعدنا ونرصد الأموال الطائلة لإبداع أعمال مماثلة فى جودتها وجديتها عن هؤلاء الذين شكلوا ثقافتنا وتاريخنا ، من زعماء وعلماء وأدباء وفنانين وسياسيين ، حتى تتعلم أجيالنا الجديدة قيم الريادة والعطاء الحضارى ؟ فأنا أؤكد أن فعاليتها سوف تتفوق إلى حد كبير على هذه الصفحات الميتة الجافة التى يتطعون منها فى مدارسنا !

---

* الأزهر ، ٤/٢/٢٠٠٠

.. فى الشارع ، عدل مفقود !

فى عام ١٩٨١ كنت فى مهمة علمية عدة شهور فى بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية ، وعلى مشارف المدينة ، خرجت يوما لبعض أمرى ، واقتضى منى الأمر أن أعبر تقاطع عدة شوارع من هذه الشوارع السريعة الواسعة التى يطلق عليها " High ways " ، وكنت ، كالعادة ، أتوكأ على " عكازى " . كانت حركة الطرق سريعة للغاية ، " حملت " هم العبور ، وإذا بالحركة تتوقف فيها جميعا ، فتصورت لأول وهلة أن " ريجان " - الذى كان رئيسا فى ذلك الوقت - يمر ، كما هى العادة عندنا ، لكن ظنى يخيب فلقد أشار لى واحد بأن هذا التوقف إنما هو من أجلى أنا ، مجهول الهوية فى هذه المدينة ، إذ ما دمت أمشى متوكأ على " عكاز " ، ونزلت من على الرصيف فلامس العكاز الشارع ، فلابد من توقف حركة المرور !!

ويبرز نفس المنطق فى العديد من المواقف ، فما من مرة أحاول أن أقف فى الطابور ، فى مطار أو فى بنك ، حتى يشير لى المسئول بأن أتقدم ، على اعتبار أننى مستثنى ، لا لمقام كبير لى ، ولكن لأننى " ذو عكاز " .. ألا إنه لمن العسير على كاتب هذه السطور أن يمتدح سلوكا أمريكيا ، لكنها الحقيقة التى لابد من الإقرار بها ، فالإنسان قيمة فى حد ذاته لابد من وضعها فى المحل الأول من الاعتبار ، أيا كانت مرتبته المالية أو الوظيفية ، مع الإقرار بوجود صور أخرى فى السنوات الأخيرة من حيث سلوكهم مع العرب والمسلمين .

وعلى الفور أتذكر عشرات المواقف المناقضة لهذا تماما فى بلادنا ، وأشهرها أننى فى أحد مواسم الصيف ، كنت أريد أن أعبر " الكورنيش " فى الإسكندرية ، وكانت حركة المرور فيه مزدحمة ، والسيارات تسير مع هذا بسرعة الصاروخ ، وعبثا أشير لقائدى السيارات بعكازى كى أستطيع المرور ، ولا حياة لمن تنادى ، وظللت على هذا الحال فترة طويلة ، وكان على أن أسير مسافة غير قصيرة حتى نقطة أجد فيها عسكرى مرور كى يساعدنى على العبور ، وعلى الفور أتذكر أيضا العبارة الشهيرة للشيخ محمد عبده عند زيارته لمدينة لندن : رأيت إسلاما بغير مسلمين ، وفى مصر مسلمين بغير إسلام ! يريد بذلك أن السلوك بمقتضى التعاليم الإسلامية مطبق هناك ، لكنه غير مطبق عندنا . وما من مرة يتحتم على أن أقف فى طابور وأجد من يقدمنى على نفسه ، لا من المسئول ولا من الجمهور نفسه ، بل كثيرا ما أجد من يزاحمنى ويتعدانى !

وأحيانا ما أتريض فى بعض الشوارع المحيطة بمنزلنا بمصر الجديدة مع حفيد لى يتجاوز السنوات الثلاث بقليل ، فتقابلنا المشكلة الكبرى ، فرصيف كل شارع عال بدرجة لا مثيل لها فى أى بلد من بلدان العالم ونادرا ما توجد منطقة منخفضة ، فيعسر على العبور ، كما يعسر كذلك على الطفل الصغير ، وأضطر أحيانا أن أسير أسفل الرصيف ، على ما فى ذلك من خطورة . وأتساءل أمام كثيرين : ألا يعرف مهندسو الطرق فى مصر أن هناك مقاييس عالمية لأرصفة الشوارع ؟ فأسمع من يقول أنهم اضطروا لذلك حتى لا يسمحوا لأصحاب السيارات أن " يركنوا " سياراتهم فوق الأرصفة ، فأقول - بينى وبين نفسى - : سبحان الله ! ولم لا تكون هناك قاعدة بعمل مخالفة مرور لكل من يوقف سيارته على الرصيف ؟

بل إننى لأنظر بعين الشك والريبة إلى كثير من هذه الأرصفة فى مصر الجديدة التى تُهد وتُنشأ بدلا منها أرصفة حمراء فاخرة بغير حاجة إلى ذلك ، وأشعر بتمييز طبقى صارخ ، عندما تضطرنى الظروف أحيانا أن أسير فى بعض شوارع عين شمس والمطرية وحلمية الزيتون ، مع أن سكانها مصريون مثل سكان مصر الجديدة ، فترن فى اذنى المقولة الماركسية : من معه يُعطى ويُزاد ، ومن ليس معه يؤخذ منه .

---

* الميدان ، ٢٠٠٠/١/٤

المدير والسكرتيرة !

هى قصة مألوفة ومكررة فى كثير من أفلامنا السنمائية ومسلسلاتنا التلفزيونية ، ألا وهى زواج المدير بسكرتيرته علنا أو سرا ، مما يشير إلى أنها " واقع " ، لا نقول بطبيعة الحال أنه يحدث دائما أو حتى غالبا ، ولكنه يحدث أحيانا ، دون أن يصل إلى حد الظاهرة . وعلى الرغم من تحفظنا بالقول بأنه لم يصل إلى حد أن يكون ظاهرة ، فإن هذا لا يبرر عدم الاهتمام به والتفكير فى دواعيه ، إذ ليس من الحكمة أن ننتظر دائما حتى يشتعل الحريق فى المنزل كى نفكر فى أسبابه وعلاجه ، فالأسلم أن نسارع فى التفكير ، من لحظة شمنا لرائحة " شياط " ولو بسيط ، فصدق من قال : " معظم النار من مستصغر الشرر " ، ويزيد من أهمية التطرق إلى هذه القضية أن حدوثها يكون غالبا بين الرجال المتزوجين .

وأول ما يبرز لنا فى هذا الشأن أن الرجل وهو يختار زوجته ، غالبا ما لا تتطابق الصورة التى يحلم بها ، والواقع الذى يحدث ، فكم هناك من خطط وحلم وفكر ودبر ، ثم إذا به يخضع للقاعدة الغالبة " الزواج قسمة ونصيب " ! .. فهكذا تجىء الأمور ، وكأنه قدر لا قبل لك بدفعه أو إبداء الرأى فيه . لا أقول هذا بطبيعة الحال على سبيل التعميم ، فهناك حالات يحدث فيه عكس ما أقول .فإذا ما جئنا إلى اختيار السكرتيرة ، نجد الأمر مختلفا ، فهناك معايير ومواصفات وشروط لابد من توافرها والتدقيق فى مراعاة ذلك : الجمال . اللباقة . حسن التصرف . القدرة على تحمل المسئولية . معاملة الناس بلطف . الاهتمام بكل صغيرة وكبيرة تخص المدير ... إلى غير هذا وذاك من مواصفات .

بعد فترة من عمل السكرتيرة ، واستمرار الزواج ، تحدث مقارنة لاشعورية داخل المدير : فالسكرتيرة لابد أن تكون أمامه دائما - وفق التعبير الشائع - " على سنجة عشرة " بينما الزوجة ، وسط مشاغلها وأعمالها المنزلية ورعاية الأطفال ، تكون " مبهدلة " فى كثير من الأحيان ، وأحيانا ما تكون غارقة فى روائح الثوم والبصل ، وينسى " سى السيد " أن هذا كله يصب فى تيسير حياته ، ومن هنا " تزوغ " عيناه ، فيرى جمالا هنا وقبحا هناك !

وللرجل اهتماماته المتعددة خارج المنزل ، مما يتصل بعمله ، وبزملائه ، ومواعيده ، والمهام المطلوبة منه ، وغالبا ما تتكاثر بالنسبة لكبار المديرين ، لكنه يعتمد على جدار قوى ، فالسكرتيرة تحفظ كل هذا وتعرف من يحسن استقباله ، ومن يستحق التطفيش ،

وتحفظ المواعيد وتنسق بينها ، وتعرف الكثير من الأسرار ، وتلاحظ كم ودرجة ونوع ما قد يتعرض له من إرهاق فتسرع إلى مزيد من العناية " الشخصية " والمعاملة العطوفة والحنو ، بينما الزوجة " ولا هى هنا " ، لا عن تقصير بالضرورة ، وإنما لأنها تحمل من الهموم والمسئوليات الأسرية مالا يجعلها تنتبه إلى الشأن الخاص لزوجها ..

فهى ترعى الأولاد ، وخاصة شئونهم التعليمية التى تستقطب جل وقتها ، وتعنى باحتياجات المنزل من مواد تموينية ، وملابس ، بل وبصحتهم ، وينسى الرجل أن هذا كله فيه تخفيف كبير عن كاهله ، فهو يقضى معظم وقته فى العمل . أما التى تحمل همومه المباشرة فهى السكرتيرة التى تقف أمامه معظم الوقت ، فيجد نفسه أسيرا لها لا يستطيع الاستغناء عنها ، ويزول الخيط الرفيع بين " المنزل " و " العمل " فيتصور أن هذه السكرتيرة تكون الأصلح كى يقترن بها ، وعندما يقترن فعلا بها ، يجدها - تدريجيا - تتحول هى الأخرى إلى صورة من تلك الصور الشائعة بين النساء المتزوجات فى بيوتنا المصرية !

---

* الميدان ، ٢٠٠٠/٢/٨

حتى الآن ، فإن الأزمة الخانقة للمرور التى يعيش فيها المواطنون فى القاهرة وتستنفذ الكثير من الوقت والأعصاب والجهد والمال لا يبدو أن أولى الأمر قد نجحوا فى التوصل إلى حل لها !

هذه حقيقة يعيشها الجميع ، ولابد من الاعتراف بها ..

صحيح أن هناك العديد من الجهود التى بذلت ، أعظمها بطبيعة الحال ، مترو الأنفاق ، وكوبرى أكتوبر ، وبقية الكبارى الأخرى . وما من مشروع يُشرع فى العمل فيه حتى يصرح المسئولون بأن إنجازه سوف يحل كذا بالمائة من الأزمة ، وأخرها هذه الوصلة الأخيرة لكوبرى أكتوبر ، حيث كان التصريح يؤكد أن ٤٠٪ (لا أدرى على أساس حسبت هذه النسبة) من الاختناق سوف يتم القضاء عليه ، ومع ذلك فهذا لم يتحقق ، صحيح تحققت سيولة ملحوظة فى مسافات ، لكن الراكب يعود فيدفع الدين فى منطقة أخرى تعانى من تزايد اختناق ، وكأنك يا أبو زيد لا رحت ولا غزيت !

وما زلت أذكر أننى قرأت حديثا لمسئول كبير عن المرور منذ فترة ما يشبه إعلان فقدان الأمل فى حل مشكلته فى القاهرة ، حيث كانت وجهة نظره ، أن شوارع وميادين القاهرة فى اتساعاتها هى هى منذ عشرات السنين على وجه التقريب ، بينما تدخل فى الخدمة على هذه المساحات عشرات السيارات الجديدة يوميا ، وبالتالى فإن ما يُقام من مشروعات ستظل بمثابة المسكنات الوقتية ، إذ بعد فترة قصيرة ، يعود شبح الأزمة الخانقة للظهور مرة أخرى ليضغط على أعصابنا وجيوبنا وعقولنا !

وأذكر أنه فى آخر مرة لى أقوم فيها بزيارة عمرة إلى مكة والمدينة ، أن ذهبت من مكة إلى المدينة ، حيث المسافة تقرب من خمسمائة كيلومتر فى سيارة خاصة جيدة لأحد الأصدقاء السعوديين ، وفى العودة ، وكانت بعد الانتهاء من صلاة الفجر ، ووصلنا إلى مكة قرب الحادية عشرة صباحا فوجدت أننى لم اشعر بأى تعب بأى حال من الأحوال ، إلى الدرجة التى أمكننى أن أواصل القيام ببعض المهام والأنشطة بقية اليوم دون كلل ، لأن

الطريق على دررجة عالية للغاية من جودة " السفتلة " ، بحيث لا يشعر الراكب بأى اهتزازات صعودا وهبوطا طوال الطريق .

وأخذت أقارن بين هذا وبين ما يحدث عندما أذهب من منزلى فى مصر الجديدة لحضور جلسة لجنة التربية وعلم النفس فى مجمع اللغة العربية بالزمالك ، فعند العودة أشعر وكأننى كنت أقوم بجهد طويل المدى ، مرهق ، لا أتمكن بعده أن أقوم بجهد آخر ، ذلك أن العذاب الذى نمر به طوال الطريق ، والصعود والهبوط فى بعض الشوارع من سوء سفلتتها ، والأخلاقيات المفلوتة من بعض قائدى السيارات ، والاختناقات المعروفة .. كل هذا يقف وراء هذا الشعور بالإرهاق الشديد كلما كان على المواطن أن يخترق القاهرة بدءا من مصر الجديدة أو مدينة نصر إلى أى مكان آخر فى هذه العاصمة المسكينة التى أصبحت شرايين القلب فيها مصابة بطبقات من الكولسترول التى تهدده بالتوقف والعياذ بالله !

وكما يقول جمهور الناس فى مصر فى مناقشاتهم العادية : " ربنا عرفوه بالعقل " ، فليسأل كل منا : إذا كان السبب الرئيسى هو التكدس والتزايد المستمر فى البشر والسيارات فى القاهرة مع بقاء سعتها كما هى ، فلنطرح تساؤلا أبعد من ذلك وهو : ما الذى يدفع مئات الألوف على هذا وهم يعرفون مقدما العناء والعذاب الذى سوف يلاقونه على الطريق؟ الإجابة لا تخفى على أحد ...

إن الذى لا شك فيه أن الكثير من مصالح الناس ، بل وكذلك الخدمات الأساسية ، لا تُقضى غالبا إلا بالقاهرة .. إنها المركزية التى ما زالت تجثم على الصدور على الرغم من " هيكل " الحكم أو الإدارة المحلية ، فلا يستطيع مواطن ، من أسوان حتى مرسى مطروح ، أن يستغنى عن التواجد فى القاهرة لقضاء العديد من المصالح الضرورية ، لا الحكومية فقط ، بل وغير الحكومية ، وأبسط ما يمكن أن أسوقه هنا ، عندما أشترك فى مناقشة رسالة ماجستير أو دكتوراه ، وخاصة فى محافظات صعيدية بعيدة ، وأجد أن مصادر مهمة قد غابت عن صاحب الرسالة ، يكون الرد أن ظروف الباحث الاقتصادية والاجتماعية لا تمكنه من الذهاب عدة أيام ، وعلى مرات ، إلى القاهرة ، حيث لا توجد هذه المصادر إلا بها !! وقل مثل هذا بالنسبة للكثير من الأمور ..

حتى فى مجال الفن ٠٠كثيرا ما قرأنا فى تاريخه أن الفرق المسرحية الكبيرة مثل فرقة يوسف وهبى أو فاطمة رشدى أو على الكسار أو الريحانى ، كانت تقيم بعض عروضها فى عدد من عواصم المحافظات ، وكان يحدث هذا أيضا بالنسبة لبعض كبار المطربين والمطربات ، فضلا عما كان يتكرر هذا فى بلدان عربية ، لكننا الآن نجد الجميع يتمركز بالقاهرة ، ويعرض البعض فقط فى الإسكندرية فى موسم الصيف ، أما بقية محافظات مصر فلا حق لجمهورها ، ولا بد أن يأتى إلى القاهرة !!

كذلك أذكر أننى عملت فى مكة المكرمة ثلاث سنوات فى أواسط السبعينيات ، وطوال هذه الفترة ، لم أشعر بضرورة تجبرنى على الذهاب إلى الرياض ، عاصمة المملكة ، حيث كان هناك ما يشبه الاستقلال الإدارى والاقتصادى مما لا يضطر معه الإنسان إلى الذهاب إلى العاصمة ٠

كذلك عندما زرت " واشنطن " لأول مرة عام ١٩٨١ ، متخيلا أنى سوف أرى مدينة مهولة ، على اعتبار أنها عاصمة أقوى دول فى العالم ، وهى الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكنى فوجئت بأنها ، ربما ، أصغر كثيرا من العديد من المدن الأمريكية الأخرى ، وفى مقدمتها نيويورك ، وشيكاغو وبوسطن وسان فرانسكو وغيرها ، لأن الولايات المتحدة نموذج صارخ للامركزية حقا ٠

ومن هنا فإن مبدأ اللامركزية الذى نطنطن به منذ عشرات السنين على صفحات الورق وعبر شاشات التلفزيون والعديد من الميكروفونات ، بحاجة إلى أن يعرف طريقه إلى التطبيق الحقيقى ٠

واستئثار العاصمة بالعديد من الخدمات أمر مفهوم ، لكن " الهوة " التى تفصل بين عدد ونوع ما يحصل عليه مواطنو القاهرة وما يحصل عليه مواطنو الأقاليم يجب أن تضيق ، حيث هى الآن من الاتساع إلى الدرجة التى يمكن عندها أن نقول أننا قد تجاوزنا الحد الأدنى للظلم الاجتماعى والتفرقة الطبقية الصارخة!

لكن هناك من سوف يقول أن " المحليات " قد أثبتت عدم أهليتها للوفاء ببعض المهام والمسئوليات التى أنيطت بها ، حتى أصبح حديث الفساد فيها على كل لسان ٠ لكن هذا وإن

كان قريبا من الحقيقة لا ينبغى أن يهدم المبدأ ، وإنما يدفعنا إلى أن نفكر فى مزيد من السبل التى تكفل دقة المحاسبة وشدة المساءلة ، ولا ينبغى أبدا أن تدفعنا إلى أن ننكص على أعقابنا فنتراجع عن بعض هذه الخطوات التى كنا قد حصلنا عليها فى الطريق إلى المركزية .

وإننى لأذكر أن الراحل العظيم د. جمال حمدان كان قد كتب على صفحات الأهرام عام ١٩٧١ ، على وجه التقريب ، مناديا بضرورة التخطيط لبناء عاصمة جديدة ، غير القاهرة ، وهو مطلب ما زال ملحا ، وهناك من أهل الاختصاص من هم أقدر منا على " وزن " هذا المطلب علميا واقتصاديا ، وأبسط ما يمكن البدء به هو ما يمكن أن نسميه " عاصمة إدارية" .

---

* الميدان ، ٢٥/١/ ، ١/٢/٢٠٠٠

رأس المال والسلطة

هناك الكثير من الأسباب التى قيلت تفسيرا لهذا الانهيار المدوى الذى حدث لما كان يسمى بالدول الاشتراكية ، وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى (سابقا) ، لصالح الدول الرأسمالية ، مما رسب فى العقل العالمى أن النظام الرأسمالى هو العلاج الشافى لأوجاع العالم ، وأنه فى الوقت نفسه الطريق الذهبى إلى التنمية والرخاء والقوة ، ومن هنا هذه الهرولة الواضحة نحو الرأسمالية سواء عندنا أو عند غيرنا !

والخطأ الكبير فى ما حدث هو خطأ فى القياس ، أى الحكم بأن انهيار قطب من قطبى المواجهة يعنى بالتالى صلاحية القطب الآخر ، وكأنهما بطلى ملاكمة أو مصارعة ، فسقوط واحد ، يعنى فى التو واللحظة انتصار الآخر ، إن الذى مد النظام الرأسمالى بأسباب القوة على مواصلة الحياة هو تلك الميزة التى يملكها ، وافتقدها النظام الاشتراكى ألا وهى التعددية وحرية الفكر ، فكما أننا نعيب على النظام الرأسمالى أن شيوع الاحتكار فيه يؤدى إلى سيطرة واضحة لرأسمال المال على مراكز اتخاذ القرار ، نجد أن هذا الخطر كان موجودا كذلك فى النظام الاشتراكى ، من حيث احتكار السلطة لحزب واحد ، مهما قيل من دعاوى بأن هذا الحزب هو الممثل لمختلف الطبقات الشعبية العاملة ، لأن التجربة الواقعية أكدت لنا أن الأمر انتهى إلى احتكار فئة بعينها على قيادة الحزب ، وبالتالى فلم يكن الحكم هو حكم قوى شعبية بقدر ما كان انفراد أقلية ، مما انتهى إلى استبداد مخيف فرغ الإنسان فى الشعوب التى ابتليت بهذا النظام من إنسانيته وحولته إلى دمية لا حول لها ولا قوة ، بينما تؤدى التعددية السياسية إلى كسر احتكار الحكم ، وإلى أن تفكر كل قوة فى ما يمكن أن تفعله بها القوة الأخرى إذا اكتشفت أخطاءها ، ولعل هذا ما نجد له مثلا فى ألمانيا عندما اكتشفت مخالفات مالية لـ "كول" المستشار السابق ، تسببت فى انهيار سياسى لحزبه .

وهذا ما يؤكد لنا على أهمية البعد الثانى المكمل ألا وهو حرية الفكر ، فلولا تلك الشفافية التى توافرت لمن يكتب ، ولولا تلك الحرية التى توافرت لما أتيح لأحد أن يكشف مخالفات كول ، ولسنا بحاجة إلى البرهنة على ذلك ، فكم هناك فى العالم الثالث ما هو أبشع وأشنع مما فعله كول ، لكن لأن السلطة تقوم على الاحتكار ، ولأن الشفافية معدومة إلى حد كبير ، ولأن هناك ترسانة من القوانين المقيدة للحريات ، لا تتاح لأحد أن يعرف الأخطاء التى تحدث ، وإذا عرفها لا يستطيع الكتابة عنها !

والنتيجة ؟ النتيجة مشابهة لما يحدث فى جسم الإنسان إن أصابه ميكروب ، وعجز عن اكتشافه ، وإن عرفه كابر وعاند واستمر على ما هو عليه .. سينمو الميكروب ويتغلغل فى خلايا جسمه ، وتكون النتيجة الطبيعية هى الانهيار المرضى المؤدى إلى الموت والعياذ بالله ! وهذا هو ما حدث فى الدول الاشتراكية ، وعكسه حدث ويحدث فى الدول الرأسمالية . إن الرأسمالية على درجة من الذكاء بحيث أتاح لها السماح بالتعددية وحرية الفكر أن تكتشف أخطاءها أولا بأول فتقوم بتصحيحها فتكتسب صحة وعافية وتستمر فى الحياة وتواصل الوجود !

لكن ما نود التنبيه عليه هو أن النظام الرأسمالى هو الآخر يحمل من الشرور ما لا يقل عن تلك التى حملها النظام الرأسمالى ، وإن كانت شرورا من نوع آخر ، ولعل ما أدى إليه احتكار الولايات المتحدة للقوة على المسرح العالمى ، وما أدى إليه هذا من احتكار مصادر القوة فى القرار السياسى على المستوى الدولى لهو صورة مكبرة لما يحدث عادة على مستوى أصغر فى كل مجتمع من المجتمعات الرأسمالية ، من حيث سيطرة القوى ذات السطوة الاقتصادية على مقدرات الأمور .أقول كل هذا وعينى على الطريق الذى تسير إليه مصر الآن ، حيث العديد من المؤشرات التى باتت تثير القلق !

• الميدان ، ٢٢/٢/٢٠٠٠

عندما مات كلب الأمير !

هى مقولة قديمة مشهورة ، لكننا لن نسأم الحديث عنها ، لأن الوقائع التى تنطبق عليها دائمة الحدوث والتكرار ..

قالوا أن كلب الأمير عندما مات جاء الناس ليعزوه ، ولما مات الأمير لم يجىء أحد ليعزى فيه !

والدلالة المؤلمة هنا والمفارقة المخجلة حقا أن (الكلب) استحق العزاء لأن صاحبه من ذوى المكانة والعزوة والسلطة ، فإذا ما مات صاحب العزوة والسلطة هذا نفسه ، فلا دافع للناس أن يقوموا بواجب العزاء، وهكذا يعلى النفاق الاجتماعى من قيمة (الكلب) واستحقاقه التكريم ، ميتا ، على (الإنسان) لأن معيار السلوك الاجتماعى ليس هو الفضيلة فى حد ذاتها وأبرز صورها هنا " الوفاء " ، ولكن المعيار هو " المصلحة " فى دائرتها الفردية الضيقة ، وفى هذا الشأن تكثر القصص وتتعدد الروايات ..

ثارت هذه المقولة فى ذاكرتى الأسبوع الماضى عندما توفى د. سليمان حزين عن تسعين عاما ، فسارعت بعد ساعات قليلة إلى كتابة مقال تحية له على صفحات الأهرام متصورا أن كما كبيرا من المقالات سوف يرسل بغية نشره عن الرجل ، حيث كان يمثل هرما حقيقيا من أهرامات ثقافتنا فى القرن العشرين ، فإذا بحالة غالبة من الصمت المخجل حقا تطبق على كثيرين ، وأتساءل : أين جامعة أسيوط التى أنشأها ؟ أين المجمع العلمى المصرى (الذى أنشأه نابليون بونابرت) ، وأحياه راحلنا وجمع فحول العلماء فيه ؟ وأين الجمعية المصرية الجغرافية التى أعطاها من عمره الكثير ؟ وأين المجالس القومية المتخصصة التى أثراها منذ ساعات إنشائها الأولى حتى آخر جلسة فى الشهر الماضى ؟ وأين وأين ؟!!

وخفف من ألمى النفسى تذكرى لما حدث لى عندما كنت " أكح " فإذا بتلفونات لا أول لها ولا آخر يطمئن أصحابها من خلالها على صحتى ، حيث كنت أمينا للجنة العلمية للترقية إلى وظيفة أستاذ ورئيسا لرابطة التربية الحديثة ورئيسا لأشهر مجلة تربوية (دراسات تربوية) ، ورئيسا للقسم ، وصديقا لوزير تربية سابق ، إلى غير هذا وذاك من مواقع

متعددة ، فلما ذهب كل هذا ، أمكن أن أغيب عن القسم الذى أنتمى إليه فى الجامعة شهورا ، فلا أحظى بهاتف واحد يطمئن إذا ما كنت على قيد الحياة أو مت ؟!

ومنذ شهور ، خرج إلينا كتاب على درجة كبيرة من الأهمية عن البترول ، مؤلفه هو " حمدى البنبى " ، لكن المشكلة أن الكتاب نزل إلى السوق ، بعد ساعات أو أيام معدودات من خرج مؤلفه من كرسى وزارة البترول فلم يحفل به أحد ، وقارن هذا بكتاب عن التعليم ألفه وزير التربية ، فإذا بعشرات التعليقات والتعظيمات تشير إلى أن هذا الكتاب فتح جديد فى تاريخ التعليم فى مصر !!

وقبل أن أكتب هذا المقال فى مساء السبت ٢٠٠٠/١/١ كنت أتناول فطورى ، ومؤشر الراديو على البرنامج العام فاستلفت سمعى أن المذيع ، وهو ينوه بما سوف يُذاع من برامج فى الدقائق التالية ، يسبق اسم " عمر بطيشة " ، صاحب برنامج " ضيوفك سنة ألفين " ب " المذيع الكبير " ، وبعد ذلك ، وفى التو واللحظة يشير إلى برنامج الفوازير للمذيعة العظيمة آمال فهمى دون أن يسبق اسمها بأى لقب تكريمى !! والتفسير واضح ، فعمر بطيشة ما زال قائما بالعمل ، وصاحب سلطة كبيرة فى الإذاعة ، أما آمال فهمى ، أستاذة الجميع ، فهى لم تعد صاحبة سلطة ، رغم أن عطاءها الكبيرلا ينقطع حتى الآن ..وهكذا يظل علينا المثل الشهير الذى صدرنا به المقال ، ونفهم لماذا يعشق الناس السلطة هذا العشق الجنونى ، ففضلا عما يحصلون عليه أثناء تقلده ، فهو يحميهم من برودة دائرة التعتيم والجحود !

---

* صوت الأزهر ، ٢٠٠٠/١/٧

دخول خاطئ إلى المستقبل !

التوجه المستقبلى نزعة عالمية أصبحت علامة فارقة بين من يمكن أن يكونوا ضمن صانعى الحضارة وبين مستهلكيها فى أحسن تقدير ، أو الذين يصرون على أن يستمروا فى البقاء فى كهف التخلف ، فأين نحن من أولئك وهؤلاء ؟ المقارنة ليست فى صالحنا بكل الأسف ، على الرغم من التقدير البالغ لعدد من الجهود التى لا ينطبق عليها ما سوف نشير إليه ٠وإذا كان الدخول إلى المستقبل ليس بشعار يُرفع ، ولا باحتفالية تقام ، لكننا ، حتى على هذا المستوى الجزئى الشكلى ، أخطأنا المدخل ، وأسأنا التقدير ، ولنقف وقفة سريعة أمام بعض الدروس المؤسفة التى خلفتها احتفالية وزارة الثقافة فى نهاية ١٩٩٩:

- أدخلتنا فى جدل مؤسف وعقيم لا يصح أن يقوم بين من نالوا أقل حظ من التعليم فى حساب زمن القرون المختلفة بحيث يضيع وقت طويل فى التساؤل : هل عام ٢٠٠٠ هو بداية الألفية الثالثة أم نهاية الألفية الثانية ؟ فمن المؤكد أن الألفية الثالثة سوف تبدأ فى أول يناير سنة ٢٠٠١ ، وإذا كان العالم قد شهد احتفالات فى دول مختلفة فغالبا ما تعلق هذا بظهور رقم ألفين فى حد ذاته ، وبالتالى أعلنا دخولنا ألفية جديدة دون أن تبدأ بعد !

- قيل أن الاحتفالية " تُسوق " مصر فى عالم السياحة والدعاية والإعلام وزُعم أنها تذاع فى عشرات القنوات ، وقد أنفقت وقتا طويلا متنقلا بين القنوات الفضائية لعديد من الدول الكبرى فلم أعثر على هذه الاحتفالية ٠ ثم ، هل أكبر وأهم عجائب الدنيا السبع ، الأهرامات ، تحتاج إلى دعاية وإعلان ؟

- ذكر وزير الثقافة فى مجلس الشعب أن تكلفة الاحتفالية لا تزيد عن ٩,٥ مليون دولار، أى ما يزيد قليلا عن ثلاثين مليون جنيه مصرى ، بينما ذكر سمير رجب رئيس تحرير جريدة الجمهورية ، الذى نعرف وثاقة علاقته بالقيادة السياسية ، أن التكاليف بلغت خمسين مليون دولار ، وأكد هذا أيضا الشاعر فاروق جويدة فى الأهرام ،وهى الجريدة شبه الرسمية ، أى ما يزيد قليلا عن ١٧١ مليون جنيه، والفارق بين الرقم الذى صرح به الوزير والرقم الذى ذكرته المصادر شبه الرسمية الأخرى يصل إلى ١٤٠ مليون جنيه ، فهل وصل بنا السفه إلى هذه الدرجة باسم الدخول إلى المستقبل عن طريق عمليات لهو

ولعب لا عن طريق بناء قواعد علمية وتكنولوجية؟وكم كان يمكن أن ننشئ بهذا الرقم من مدارس أومستشفيات أو مصانع ؟وأليس من حقنا أن نعلم تفصيل إنفاق كل هذه المبالغ التى هى نقودنا نحن أبناء الأمة ؟

- أما التقييم الفنى ، فقد صدق جويدة عندما قال : " جاء العمل من الناحية الفنية ساذجا وبعيدا كل البعد عن كل الظروف التى أحاطت به من حيث المناسبة والمكان والغاية ".

- أن الدخول إلى المستقبل إنما يكون بعقول وسواعد وأذواق مصرية لديها القدرة على ذلك ، أما الاعتماد على أجنبى تصوروه عبقريا ، ويلهف وحده مبلغ عشرة ملايين دولار ، صاحب القدرات " الساذجة " ، حسب رواية جويدة ، فهذا والله هو السفه بعينه .

- جاء التوقيت كأسوأ ما يكون التوقيت ، وهو العشر الأواخر من رمضان ، التى تتطلب من أهل الدولة الإسلامية الكبرى مصر ، صاحبة الأزهر الشريف سلوكيات بعينها تتنافى تماما مع ما حدث على هضبة الأهرامات ، على الرغم مما حاولوا أن يضحكوا به علينا من أن الاحتفالية سوف تراعى " قيمنا وتقاليدنا " ، هذا الزعم الذى لم ينطل على أحد !

- الدخول إلى المستقبل فاقدى الاعتزاز بالمقومات الأساسية للذاتية الثقافية هو منطق " إلحاق " و " تبعية " ، وإلا : فأين هى احتفالاتنا بأى قرن هجرى ؟ !

---

* صوت الأزهر ، ٢٠٠٠/٤/٢١